ذاكرة الشعوب ١

فرديناند أويونو

telegram:@mbooks90

الصبي الخادم

ترجمة
محمود قدري

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذاكرة الشعوب

١

فردينان د أويونو

الصبي الخادم

رواية من أفريقيا

نقله إلى العربية
محمود قدري

المحرر
الياس خوري

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقدمة

« الصبي الخادم » ، للروائي الكاميروني فرديناند أيونو ، هي واحدة من النتاجات الابداعية الافريقية المعاصرة ، التي تسجل لمرحلة الدخول الاستعماري لافريقيا ، والتحولات والصراعات التي فجّرها هذا الدخول .

ومن المؤسف ، أن تكون هذه الترجمة ، هي واحدة من أولى محاولاتنا ، في الثقافة العربية المعاصرة ، للتعرف على النتاج الأدبي في افريقيا والعالم الثالث . كأن المركزية الأوروبية ، التي سيطرت على العالم مع صعود الرأسمالية ، فرضت على جميع الشعوب التعامل معها بوصفها النموذج ، وقدمت ثقافتها بوصفها الثقافة الوحيدة الجديرة بالحياة ، وبالترجمة الى لغاتنا .

ونحن ، في هذه السلسلة من الكتب ، التي تشكل رواية أيونو بدايتها ، نحاول أن نقدم مجموعة من النصوص الروائية ، التي انتجتها الشعوب المختلفة ، كي نكتشف أن المشكلات التي تواجهها ثقافتنا العربية المعاصرة ، ليست مشكلات فريدة ، بل هي جزء من مشكلات جميع الشعوب التابعة : اكتشاف الهوية الثقافية ، علاقة تراثها بالعالم المعاصر ، دلالات الشكل الفني الخ . . . داخل حقل الصراعات الوطنية الاجتماعية .

telegram:@mbooks90

وفي محاولتنا هذه ، للتعرف على أدب العالم الثالث ، وأدب الرفض في العالم ، نكتشف أن حقل الابداع ، وخاصة في المجال الروائي ، يأخذ مع هذا الادب نكهة جديدة تخلخل المفاهيم الجامدة ، والنماذج المأخوذة عن التجربة الروائية الغربية في القرن التاسع عشر . فالرواية ، التي تكتب اليوم ، في العالم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثالث ، مؤهلة لتقديم مقتربها الخاص ، في اطار تحديد باختين للرواية بوصفها ملحمة العصر الحديث . فهذا الإطار الملحمي ، الذي يعيد اكتشاف علاقات الحاضر ، ويرى في العلاقات الاجتماعية حقل صراع ، يفجّر « قلب الظلام » ، الذي كتبه جوزيف كونراد ، عن احتمالات لا تحصى ، وعن شكل روائي مفتوح للتعبير الحر ، ولرحلة الاكتشافات الانسانية التي لا تنتهي .

فالروايات الافريقية والأميركية اللاتينية والعربية والآسيوية ، في تحولاتها واكتشافاتها لآفاق ابداعية جديدة ، هي المدخل الذي يؤكد على التعددية في عالمنا المعاصر ، وعلى ضرورة الاعتراف المتبادل بثقافات الشعوب . فليس هناك ثقافات متخلفة وأخرى متقدمة ، بل هناك بحث عن صياغة معادلات عالم جديد تزول منه العنصرية والاستغلال . هكذا تقدم الكتابة الأدبية نفسها بوصفها فضاء رحباً للتجربة الانسانية ولبحثها المتواصل عن تاريخها الجديد .

- ٢ -

فرديناند أيونو ، في روايته هذه ، يقدم نموذجاً صغيراً لاحتمالات الكتابة الروائية . الحبكة الروائية بسيطة جداً ، انها أقرب إلى أدب السيرة . تقدم حياة الصبي الافريقي الذي يلتحق بالأبيض المستعمر ، الكاهن ثم الضابط ، ثم كيف يموت عندما يموت شعوره بالانتماء . ثم كيف يكمل الأبيض الموت الرمزي ليحيله إلى موت حقيقي . وهي مكتوبة بلغة اليوميات الشخصية ، وقائمة على المفارقة الدائمة التي تسخر ، وتقودنا سخريتها في النهاية إلى قلب المأساة .

أيونو واتشيبي وسوينكا وبييدي وتيوتولا وكمارالاي ، في الرواية . سيزير وسنغور ، في الشعر . فانون ، في النظرية الثورية . هي اسماء ـ علامات ، في مسيرة البحث الافريقي عن الذات . فافريقيا لم تواجه استعماراً يريد نهب ثرواتها فقط ، بل واجهت اجتياحاً متوحشاً لم تعرف البشرية له مثيلاً من قبل ، يهدف إلى تحطيم الانسان فيها وتحويله إلى عبد . جاء الاستعمار الغربي ، كي يحطم الثقافة الافريقية بشكل كامل ، ويحدث فيها انقطاعاً بين الماضي والحاضر ، يصعب التغلب عليه . والمؤشر الساطع على ذلك هو هذا الاستخدام المأساوي للغة الآخر ، العدو . فالأدب الافريقي الحديث ، لم ينشأ الا وهو يستخدم لغة المستعمر : الانكليزية والفرنسية والبرتغالية . كأن افريقيا كانت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمام محاولة افقادها ذاكرتها بشكل كامل، وتحويل انسانها إلى لا شيء. من هنا يجب فهم معنى دعوة « الزنوجة » ، على الرغم من مسبقاتها الفكرية التي تجعلها أحد وجوه السيطرة الاستعمارية ، وسيمكن فهم صرخات العنف المطهّر التي اطلقها فانون في « معذبو الأرض » ، وفهم هذا الطابع الروائي الذي يصرّ على المزج بين العناصر التي قد تبدو انتربولوجية وبين الواقع المعاصر ، كما في أدب اتشيبي وايونو وتيوتولا الخ . .

إن حجم الانقطاع الثقافي ، لا يمكن مقارنته بوضعية الثقافة العربية خلال فترة الحكم الاستعماري ، فلقد عوملت الثقافة العربية ، بوصفها عدواً وخطراً ، ولم تجر محاولة محوها الجديدة إلا في الطرف الشمال افريقي ، أما في افريقيا ، فان الثقافة « المحليـة » لم تعامل بوصفها عدواً لأنه لم يعترف بوجودها أصلاً . والانسان الافريقي لم يعامل بوصفه انساناً ، بل بوصفه عبداً ، وهذا الماضي الافريقي المدهش ، بطقوسه وعباداته ونظامه للحياة ، والذي نراه في رواية اتشيبي « الأشياء تتداعى » ، لم ينظر اليه من قبل المستعمر الأبيض ، إلا بوصفه علامة على الهمجية والدونية . ولأن المنتصر هو الذي يكتب التاريخ ، فإن الثقافة الافريقية وجدت نفسها في العري الكامل . مجتمع قديم يتحطم ويجري استبداله بمجتمع قمعي جديد ، ثم ننتقل إلى الدولة الحديثة ، التي قدم لها الروائي النيجيري سوينكا ، نقداً لاذعاً في روايته « المفسّرون » .

أمام هذه المطحنة التي تدور ، لم يكن هناك خيار أدبي بالمعنى الحقيقي والدقيق للكلمة . بل كان الأدب أشبه بصراخ يرتفع ، كان تعبيراً عن أزمة النخبة المثقفة ، أي أزمة الانتمـاء الاجتماعي ، في ظرف يتفكك فيه البناء الاجتماعي القديم الى ذرات صغيرة لا تجد لحمتها في الواقع ، وتتعرض يومياً لأكثر اشكال القمع توحشاً .

لذلك يمكن تلخيص تطور الرواية الافريقية المعاصرة في مراحل ثلاث .

المرحلة الأولى ، هي مرحلة اكتشاف الذات ، التمسك بالذات والتمسك بالموروث ، والتي قدمت نتاجات متعددة ، كان أبرزها روايات آمولس تيوتولا ، التي تستعيد الحكاية الشعبية الافريقية ، وتقدمها في اطار حِكائي . الشكل الروائي ، ليس شكلاً روائياً بالمعنى الدقيق للكلمة ، والجرأة على اللغة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الانكليزية تتسع إلى درجة تحطيمها كبناء . وقد أشارت رضوى عاشور في كتابها « التابع ينهض » ، الى هذه الظاهرة بوصفها محاولة للتعبير عن الوعي الافريقي بأداة لغوية غريبة ، يجري تطويعها .

المرحلة الثانية ، هي مرحلة الاحتكاك بالغرب ، والشعور بالمهانة والندم . والطريف هنا ، أنه على عكس الرواية العربية ، حيث ينتقل المثقف العربي إلى أوروبا ، كي يقدم تخلخل الوعي العربي أمام العلاقة بالمستعمر ، كما في روايات توفيق الحكيم ويحيى حقي وسهيل أدريس والطيب الصالح ، فإن العلاقة هنا تتم في الأرض الافريقية ، والمثقف هو الخادم الذي يلتحق بالمؤسسات الارسالية الأجنبية ، وهو يموت أو ينهار ، لأنه يصبح عاجزاً عن أن يكون مثقفاً أوروبياً أو مثقفاً افريقياً . وروايات هذه المرحلة ، أيونو ، اتشيبي ، بييدي ، تنقل هذا الواقع المرير ، بروح تمتزج فيها السخرية اللاذعة بالأدب الأسود . ونكتشف في هذه الروايات تخلخل الوعي ، والخوف ، والموت ، وهي تمتزج في الحان جنائزية افريقية . هنا أيضاً ، سوف يأخذ الطابع شبه الانتروبولوجي حجماً كبيراً ، لأن الكاتب الافريقي ، يشعر أنه يؤرخ للحاضر وللماضي في آن معاً . فيقدم رؤية للعالم تتداعى فيها جميع العناصر ، وشعوراً بالخوف والرهبة وفقدان الحيلة ، أمام هذا التحول الاجتماعي ـ الثقافي ، الذي لا يرد .

telegram:@mbooks90

المرحلة الثالثة ، هي المرحلة النقدية . انتهى الاستعمار ، وبدأ فشل « المفسرون » على حد تعبير سوينكا . المثقف يجد نفسه أمام العجز المطلق ، وبنية الدولة التي تتحكم بالمجتمع من خارجه ، فوقه ، تكشف عن تعفنها ، وكأنها تسعى إلى تأبيد السيطرة الاستعمارية بأدوات جديدة . هنا يصل الصوت الأدبي الافريقي إلى نضجه ، أنه ليس في الدفاع السلبي عن الذات ، « الزنوجة » لا معنى لها إذا كانت لا تقدم سوى التقديس للماضي وللشخصية الافريقية . فالكاتب الافريقي ، يتحرر الآن من القمع الداخلي ومن الدهشة أمام الآخر ، ويبدأ مغامرته مع الكتابة النقدية الحقيقية ، ومع البحث عن أشكال التعبير الأدبي .

هكذا نرى ، أن هذا التلخيص السريع لمسار الرواية الافريقية ، يكشف عن عمق أزمة الوعي الافريقي المعاصر في تعامله مع ظاهرة التحول الكبرى التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طرأت على العالم . غير أن الوعي الافريقي حاول في المقابل أن يقدم أجوبته . على محورة الأدب ـ الشاهد والمغيّر . كأن قدر الأدب في العالم الثالث ، كان أن يحمل من ماضيه نبرة شبه تعليمية ، وأن يواجه حاضره بعيون الشاهد المليئة بالدماء . فجاءت الكتابة فعل تأسيس . والعلاقة بين التأسيس والتغير علاقة ملتبسة وغامضة . فالعلاقات الاجتماعية والدلالات الثقافية تتغير بفعل الوجود الاستعماري المدمّر، والكتابة التي تستعير لغة عدوّها ، نتيجة الواقع الثقافي المتعدد الذي لا يجد معادلاً ثقافياً ـ فكرياً لمعنى نشوء الدولة الحديثة ، كما صاغها المستعمر . ولغة العدو هي جزء من هذا التغير المفروض بالقوة . لذلك ، ربما ، نجد هذه المأساوية الحزينة ، التي تجعل من الايقاع الروائي شبيهاً بايقاع الطبول البعيدة وهي تعلن الموت . ولذلك أيضاً يأتي التأسيس الثقافي ، كهاجس أساسي . فالكاتب الافريقي ، حين يشهد ويستنبط لغته من ملحمة الآلام الطويلة ، يسعى إلى اعادة نظر جذرية في معنى أن تكون مثقفاً ، والى محاولة اكتشاف اسس جديدة لعلاقة افريقيا بنفسها وبالعالم .

- ٣ -

رواية أيونو « الصبي الخادم » ، هي نموذج كبير الدلالات ، على الواقع الثقافي الافريقي . فأيونو الذي عمل صغيراً مع الارسالية الدينية في الكاميرون ، ثم انتقل لاكمال دراسته ، ثم عمل في السلك الديبلوماسي كممثل لبلاده في الأمم المتحدة ، ينقل في هذا الكتاب تجربة معاشة بلغة السخرية والخوف . هذا الازدواج ، السخرية ، الخوف ، هو الميزة الاساسية في هذه الرواية ـ السيرة . وأيونو في روايته الثانية « الكهل والميدالية » ، يعيد رواية السيرة نفسها ولكن من منظور الوعي . فاذا كان الصبي الخادم يقتل على يد الانسان الأبيض الذي التحق به ، فان الكهل يعيش في خراب روحه وهو يستعد لتلقي الميدالية من المستعمر تقديراً لخدماته ، ويكتشف كيف ضاعت الحياة من بين يديه .

المشهد الأول في الرواية يلخص دلالاتها جميعاً . تاوندي ، الذي أصبح جوزيف في ما بعد ، يحتضر نتيجة لتعرضه للتعذيب في السجن ، ويصرخ :

« أخي ! قال : أخي ما نحن ؟ ما نحن الرجال السود المسمون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فرنسيين » ؟ وصار صوته يقطر ألماً .

أنا من الكاميرون يا صديقي . . أنا من أكـاكا . . كنـت سأعيش طويلاً ، حتى تشيخ عظامي ، لو كنت طيباً ولزمت بيتي . . في قريتي .

هذه « ألما نحن » ، التي يصرخها تاوندي أمام الموت ، تكشف عمق الخوف الذي يلف الرواية بأسرها ، أنه الخوف من المصير ، من الواقع ، من الأشياء التي تتداعى ، على حسب تعبير الروائي النيجيري اتشيبي ، وهذه الاشياء تنحل إلى علاقات وتفاصيل تجرف الانسان الافريقي إلى الهاوية . كأن العلاقة بالانسان الأبيض ، التي لا يمكن تلافيها ، تصبح هي اللعنة التي تقود الى الموت . فهذا القادم الجديد المسلح بالوصايا الالهية وبالجنود والسلاح ، يقوم باحلال اللعنة على الأرض الافريقية وسكانها . بتخرج هذا الوهج الخائف من قلب الغابات التي امتلأت بصخب الانسان الذي يتواصل مع الطبيعة والأجداد ، على شكل صرخات من الخوف والرهبة .

لكن خوف تاوندي . يمتزج بالسخرية . والسخرية ليست تعبيراً عن موقف عبثي ، انها اشارة الى الصبر وإلى الأمل . تاوندي الذي يشعر بقدسية الأب جيلبـرت ، حين يهرب اليه من والده ، ثم يشعر بعظمة القومندان ، يكتشف من خلال الحياة اليومية . أن الأبيض هو انسان عادي ، وان ادعاءاته عن الشرف والبطولة ، ليس لها أي معنى . ومن خلال هذا الاحتكاك اليومي بين ثقافتين ، واحدة مقهورة ومستسلمة ، وأخرى منتصرة ومدعّية ، يكشف ايونو . بسخريته اللاذعة والمدهشة كيف يكتشف الوعي الافريقي نفسه ، ويكشف عن احتمالاته ، وهو يعاني ويحاول . يعاني القمع ويحاول أن يتمثل القامع . ومعاناته هي التي تكشف له استحالة المحاولة ، فيأتي موت تاوندي ، كنتيجة حتمية للمحاولة نفسها ، وكمؤشر إلى الامكانيات الأخرى والبديلة التي يستطيع الوعي اكتشافها .

الرواية في بنيتها العامة ، لا تدعي شيئاً ، تمزج السرد بأسلوب اليوميات الشخصية ، وتقدم ، من خلال عين الصبي الافريقي ، رؤيتها للعالم . والعالم هنا ، ليـس أكثر من تفاصيل الحياة اليومية . تاوندي يهرب من والده ومن التقاليد الافريقية بحثاً عن الخلاص في البعثة التبشيرية ، وبعد موت الأب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جيلبرت يتم الانتقال إلى المقر العسكري للعمل على خدمة القومندان ، هكذا يجري الانتقال ببساطة شديدة من العمل عند الكاهن الى العمل عند البوليس ، والعلاقة بين الكاهن والبوليس ، التي لا تمر إلا عبر شخصية الانسان الأسود ، هي التي تكشف خداع مجتمع البيض ، وكذبه ، وكونه مجرد قوة استغلالية عارية . وهذا الكشف يتم ببطء وبالتدريج . واذا كان أيونو يقدم النهاية المأساوية لبطله في بداية الرواية ، فإنه لا يقدم جديداً ، إذ يقوم باستعارة شكل الحكاية التقليدية ، حيث الخاتمة أو النتيجة ، ليست هامة . بل الأهمية هي للمسار ، أي للحكاية . والمسار ، يدور بشكل بسيط ، وبساطته هي التي تضفي عليه هذا البعد الساخر . فعبر السخرية يتحرر الانسان الأسود من دونيته ، وعبرها أيضاً تنكشف مفارقات الممارسة الاستعمارية البيضاء .

ولأن الرواية تدور في محوري الخوف والسخرية ، فانها لا تحمل في داخلها احكاماً اخلاقية . كأن الحكم الوحيد الذي فيها ، يأتي من عيني هذا الخادم الأسود الذي يرى . ولأنه يرى يجب أن يموت . القومندان يسلمه إلى السجن ، لأنه رأى علاقات الزوجة الغرامية ، أي لأن الأبيض يريد لآثامه ، أو لما يعتبره اثماً ، أن يبقى خارج دائرة عيون الاسود الذي تم تدميره . ولأن تاوندي رأى ، فانه يموت ، لكنه حين يكتب ما رآه ، يكون قد كسر دائرة موته . فالموت الافريقي ، في نظر الأبيض المستعمر ، يجب أن يكون دائرياً ، أي لا يقدم نفسه إلى الآخرين ، لكن تاوندي يرى ويكسر الدائرة ، وبهذا تصبح تجربته عتبة من أجل أن ينتهي عصر التمثل بالسيد ، ومن أجل أن تبدأ الرؤية الحقيقية ـ النقدية للواقع الافريقي .

وعلاقات تاوندي بالافريقيين من أبناء وطنه ، علاقة نموذجية للدراسة ، انهم يدافعون عن أنفسهم بالهزء والسخرية من الانسان الأبيض . يتفرجون عليه ، يركضون وراء الكاهن من أجل قطعة من السكر الأبيض ، لكنهم يسخرون من طريقته في الكلام ، ومن حياته اليومية ، ومن فهمه الغريب للعالم . يغلفون خوفهم بالسخرية ، بانتظار أن تتحول السخرية إلى فعل ايجابي .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسألة البالغة الاهمية في الرواية ، هي أن تاوندي يكتب مذكراته . فأسلوب اليوميات الذي في الرواية ، ليس مجرد أسلوب فني . انه دلالة . فالأسود المقموع يتعلم من عدوه اللغة التي يستطيع عبرها أن يخاطب جميع الافريقيين . فإذا كان الاستعمار وحّد افريقيا في بحر القمع الدموي ، فان لغات القبائل لم تعد كافية لنقل وحدة الوعي إلى مرحلة التصدي . لذلك ، لا يموت تاوندي قبل أن يكتب . وهو حين يكتب يسرق من عدوه أداة رئيسية للقمع ، اللغة والثقافة .

وسوف نلاحظ هذا التلعثم المدهش في لغة الصبي الخادم ، وهذا لا يعود فقط إلى كونه يكتب بلغة « الأووندو » التي يقوم المؤلف بترجمتها ، بل لأنه (المؤلف) يكتب بالفرنسية . أي لأن هذا الازدواج اللغوي في اليوميات ، هو الذي يعطي للوعي قفزته الكبرى . التلعثم إذن هو تلعثم اكتشاف العالم الجديد ، اكتشاف الماضي في سياق العلاقة الكولونيالية . هنا تبرز أهمية امتلاك تاوندي للغته وأهمية امتلاك أيونو للغة الفرنسية .

أسلوب اليوميات ، هو بهذا المعنى اكتشاف لعلاقة التدوين بالتغيير والتأسيس . تدوين الثقافة من قبل ابنائها ، يحررها من الادعاءات الانتروبولوجية الغيبية ، وهو الذي يسمح لمسألتي التغيير : عبر رفض الواقع الكولونيالي ومخلفاته المحلية ، والتأسيس : عبر وضع الانتاج الابداعي في سياقه ، بوصفه جزءاً من العملية التاريخية ، بالتبلور .

- ٥ -

هذه الرواية . هي بمعنى ما ، نافذة على الوعي ، والتعرف الى آداب شعوب العالم الثالث ، يسمح لنا بأن نرى انفسنا في مرآة الآخر ، الذي يشبهنا . ولا يمكن للمرآة ـ النموذج ، أن تتحطم ، الا اذا استطعنا أن نؤكد على مقولة أساسية ، وهي أن الثقافة يجب أن تتفاعل ، خارج علاقة السيد بالعبد . وأن هذا التفاعل الحر ، هو الذي يعطي معنى لعالم جديد ، يستفيد من جميع انجازات الانسان ، دون أن يعني هذا ، أنه يحق للرأسمالية المتوحشة أن تسحقنا بحجة التقدم .

بيروت ، تموز (يوليو) ١٩٨١ — الياس خوري

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان الوقت مساءً . الشمس قد غابت وراء القمم الشاهقة . وظِلُّ الغابة الحالك يزحف حول « أكومو » . أسراب « الطوقان » ، تمر ، بايقاع أجنحتها الضخمة ، تشق الهواء ، وبطيئاً يموت نداؤها الحزين . لقد حلّت خلسة تلك الليلة الأخيرة من عطلتي في غينيا الاسبانية . وقريباً ، كنت سأرحل عن هذا البلد الذي ننسلّ اليه، نحن «الفرنسيين»من الغابون والكاميرون ، في عطلة قصيرة ، حين تتأزم الأمور ، قليلاً ، بيننا وبين « مواطنينا » البيض .

كان الوقت قد حان للوجبة المعتادة من السمك وأعواد المانيهوت[1] . تناولنا الطعام بصمت ، فالفم الذي ينشغل بالحديث لا ينفع في الأكل . وظلت عينا كلب الحراسة الرابض بين قدميّ ، تلاحقان ، وهما مفعمتان بالحسد ، قطع السمك واحدة واحدة ، وهي تنزلق في بلعوم سيده . . مضيفي . أكلنا حتى الامتلاء . وحين انتهينا ، حكّ كل منا بدوره بطنه باصبعه الصغير[2] ، فشكرتنا ربة البيت بابتسامة .

كانت الأمسية تَعِد بالمرح وحكايا الغابة . وتظاهرنا ، جميعاً ، بنسيان رحيلي القريب .

واستسلمت بدوري ، لذلك الابتهاج العفويّ للعائلة المضيفة . فم

---

(١) المانيهوت : نبات تحتوي جذوره على غذاء نشوي ـ المترجم .

(٢) اشارة مهذبة للتدليل على أن الشخص قد أكل جيداً .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تلك اللحظة ما كانوا يفكرون بشيء سوى الالتفاف حول النار ليقّصوا مغامرات السلحفاة والفيل التي لا تنتهي .

« لا قمر الليلة ، » قال مضيفي « والا كنا رقصنا احتفاء برحيلك » .

« نوقد ناراً في الفناء » . اقترحت زوجته .

« لم يخطر ذلك ببالي خلال النهار ، فليس لدينا الكثير من الحطب » .

تثاءبت الزوجة . وانطلق ، فجأة ، قرع طبول مشؤوم .

لم أفهم لغة الطبول ، تلك التي يستعملها أصدقائي « الاسبان » ، ولكن نظراتهم المضطربة كانت تقول أن الطبول تتحدث عن محنة ما .

« مادري دي ديوس »[٣] قال انطوان وهو يرسم اشارة الصليب .

نظرت زوجته إلى السماء ، عالياً ، حتى غاب بؤبؤا عينيها ، ثم رسمت اشارة الصليب . وبدون وعي رفعت يدي إلى جبيني .

« مادري دي ديوس » ردّد انطوان وتوجه بالحديث اليّ : « فرنسي ، مسكين آخر . . . تقول الطبول أن فرنسياً مريضاً ، في حالة الخطر . ولا يظنون أن النهار سيطلع عليه » .

لم يكن الرجل يعنيني في شيء ، لم أكن حتى أعرفه . ورغم ذلك فقد ساد رأسي اضطراب عميق . رسالة موت كهذه ، في الكاميرون ، ما كانت لتوقظ فيّ الا طيف عاطفة ـ عاطفة اشفاق خافتة نحسّها حين تحين ساعة الموت لانسان آخر .

« قرع الطبول هذا يأتي من (مفولا) ، قال مضيفي : « لا أعرف أن هناك فرنسيين في (مفولا) . الرجل المحتضر لا بد قد حلّ فيها هذا الصباح . سنعرف غداً » .

أحسست بهم ينظرون اليّ نظرة اشفاق صامتة ، تلك النظرة التي يستطيع هؤلاء القوم أن يمنحوها لعيونهم . فوقفت وسألت أنطوان ان كانت (مفولا) هذه بعيدة جداً .

---

(٣) تعبير باللغة الاسبانية يعني : « يا مريم العذراء ! » ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« انها في الجانب الآخر من الغابة مباشرة . . القنديل مليء بالكاز » .

لقد نفذ انطوان الى قلبي ، رأى ما فيه وقرأ ما هو مكتوب هناك . خرجنا ، مسلحين بالسهام ، يتقدمنا صبي يحمل قنديلاً يرسل على الطريق ضوءاً شاحباً . مررنا بقريتين والتقينا جماعة من الأهالي ، تعرّفوا على انطوان وسألوه ، بلغة اسبانية ركيكة ممزوجة بلغة « الباهووين » ، عما دفعنا إلى السفر ليلاً . وقد التقطتُ عدة مرات كلمة « فرنسيين » ، بعد ذلك ، رسم كل واحد منهم اشارة الصليب . وحين ابتعدوا ، سرعان ما نسوا تلك المآسي وصاحوا خلفنا بمرح « بوينس تاردس »[٤] ، بينما أوغلتْ دربْنا في الغابة .

« تعبت ؟ » قال انطوان : « الرحلة في بدايتها » .

وأخيراً ، عبرنا الغابة وسارت طريقنا عبر مرج واسع بين أشجار « الاسسنجو » المتطاولة . وأخذت أصوات الطبول تزداد وضوحاً وتحديداً . بلغنا أرضاً فضاءً . وقطع نعيب بومة فاصلاً من فواصل الصمت بين قرع الطبول المكبوت ، فأرسل انطوان صيحة من الضحك تردّد صداها بين الأشجار العملاقة في الغابة . وأرسل سيلاً من الشتائم للطائر ، كأنما يشتم انساناً آخر .

« انه بيدرو المسكين » : قال بين فورات الضحك « الكلب ، مات منذ اسبوعين . وحين أتينا بالقسيس لينقذ روحه طلب منه « أن يغرب عن وجهه » ، لقد أحرقت زوجته أظافر يديه علّه يهتدي . لكن شيئاً لم يُفِد . تمسّك وعانى حتى النهاية ، ومات وثنياً . ها هو يتحول الى بومة ليموت من شدة البرد في أعماق الغابة . ولن يستطيع أحد غير القسيس أن يفعل شيئاً . هذا اذا قررتْ أرملته ، قبل كل شيء ، أن تقيم قداساً على روحه . . يا لبيدرو العجوز المسكين ! » .

لم أجب بشيء على هذا الدرس في التقمص يقدم ليلاً في أعماق غابة استوائية .

---

(٤) تحية باللغة الاسبانية : « عصر طيب » ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مررنا بحريق . درنا حوله وتجاوزناه ، فوصلنا .

« مفولا » ، لا تختلف عن القرى التي مررنا بها . أكواخ مسقوفة بسعف نخيل « الرافيا » ، جدرانها مبيّضة بالجير ، وتصطف حول ساحة لوثها روث البهائم ، وبينها يشمخ « الآبا »(٥) ، بهيكله القاتم ، في وجه الليل ، وقد تعالى منه صخب وفوضى . . ودخلنا .

كان الرجل المحتضر مسجّىً على سرير من أغصان الخيزران . عيونه جاحظة متعبة . وقد التف على نفسه وانطوى فبدا كظبي ضخم . قميصه ملطخة بالدم .

« هذه الرائحة المنتنة ستسبب لنا المرض »قال أحد الحاضرين .

لم أر في حياتي رجلاً يحتضر . وأمامي ، الآن ، رجل يمزقه الألم . رأيته تماماً كما هو ، لم يتبدل أو يتحول بفعل وميض الحياة الآخرة . بدا كأنه لا يزال يستجمع قوته العنيدة حتى لا يسير هذه الرحلة العظيمة .

سعل ، فسال الدم من بين شفتيه .

وضع الصبي الذي رافقنا القنديل قربه ، فحاول ، بجهد جبار ، أن يغطي عينيه . فأبعدت القنديل عنه ونوّصت ضوءه .

كان شاباً . انحنيت وسألته ان كان يريد شيئاً . عفونة تبعث على الغثيان كانت تنبعث منه ، فأشعلتُ سيجارة . . إستدار برأسه نحوي . وبدا ، وهو يقرأ تفاصيل جسدي ، كأنما أفاق من الغيبوبة التي كانت تغشّته حين دخلنا البيت . ندت عن شفيته ابتسامة شاحبة ، وسعل . مدّ يداً راجفة ومسح ردائي عند الركبتين .

« فرنسي ، فرنسي ! » قال لاهثاً « أنت من الكاميرون . . ؟ »

أومأت بالايجاب .

« لقد عرفت ، أدركت أنك أخ . . من وجهك . . أركي ! . . أريد بعض الآركي ! »

---

(٥) آبا : كوخ مخصص للاجتماع والنقاش .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ناولتني امرأة كوباً مملوءةً بنوع من « الروم »[٦] له رائحة الدخان ، فسكبته في فمه . كان خبيراً بأصول اللياقة فرغم ألمه المبرّح فقد غمز لي بعينه . وبعدها ، بدا كأنه استجمع قوته من جديد . اعتمد على كوعه وهمّ بالنهوض ، وقبل أن يطلب العون مني ، تقدمت وأحطت كتفيه بذراعيّ وأنهضته ، فأسند ظهره إلى الحائط . وفجأة التمعت عيناه الفارغتين ، وما فارقني منذ ذلك اليوم أبداً .

« أخي ! » قال : « أخي ، ما نحن ؟ ! . ما نحن ، الرجال السود المسمّون (فرنسيين) ؟ ! » وصار صوته يقطر ألماً .

لم يسبق أن سألت نفسي هذا السؤال . كنت طائشاً . ولكنني الآن أحس كم كنت غبياً فيما مضى .

« أترى يا أخي . . لقد انتهيت . . لقد قتلوني . . » كشف عن كتفه لأرى ، ثم استرسل : « لكنني سعيد لأنني سأموت بعيداً عنهم . أمي ، كانت تعرف إلا مَ سيوصلني هذا الطمع ، وكانت تقول . . ليتني أعرف أن طمعي سيوصلني الى القبر . . كم كانت مصيبة والدتي . . والدتي المسكينة ! » .

هزّت جسده حازوقة فسقطت رأسه على كتفه . سعل وتنحنحَ ، ثم عاود الحديث :

« أنا من الكاميرون يا صديقي . . أنا من « الماكا »[٧] . . كنت سأعيش طويلاً ، حتى تشيخ عظامي ، لو كنت طيباً ولزمت بيتي . . في قريتي » .

بدأ عقله يتشتت ويهيم . لكن نوبة من السعال قطعت ذلك عليه . وعاد ، بعدها ، يتنفس بانتظام . أعنته حتى تمدد على السرير من جديد ، فَجرَّ يديه الهزيلتين وصالبهما على صدره ، وراح يتأمل حشايا السقف التي

---

(٦) الروم : نوع من المشروبات الروحية ـ المترجم .

(٧) ماكا : احدى القبائل الافريقية في الكاميرون ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سودها السناج . . ونَسِيَنا .

اضطرب ضوء القنديل ، رفعت فتيله ، فأضاء جانباً من سرير الزان ، وسقط ظلّ الشاب المحتضر على حائط « الآبا » المشقق . وفوق هذا الظل كان عنكبوتان يجريان . ظهر ظلاهما المضخمان كأخطبوطين تتدلى مجساتهما كفروع شجرة صفصاف تنوح على ظلٍّ رأس الشاب المحتضر الذي بدا وكأنه رأس قرد .

تشنج جسده ثم ارتجف ولفظ النفس الأخير .

لم يَدَعوه حتى الصباح بل دُفن في تلك الليلة ، فقد تَحَلّل جسده حتى قبل أن يموت .

علمتُ ، بعد ذلك ، أنهم وجدوه فاقد الوعي قرب حدود المنطقة الاسبانية . ناولني أحدهم رزمة من ثياب الكاكي . وقد هتف الرجل الذي وجدها بحزن : « لا بد أنه كان (أونو ألومنو) »[٨] .

فتحت الرزمة . وجدت فيها دفتري تمارين مهترئين ، وفرشاة أسنان وعقب قلم رصاصي ومشط عاجيّ محليّ كبير .

وهكذا قرأت مذكرات « تاوندي » . كانت مكتوبة بلغة « الأووندو » ، احدى اللغات الرئيسية في الكاميرون . وفي هذه الترجمة التي أقدمها ، والتي أنتم على وشك قراءتها، حاولت أن أصون غنى اللغة الأصلية الى الحد الذي لا يعترض سير القصة ذاتها .

---

(٨) أونو ألومنو : تعني « تلميذ » في اللغة الاسبانية ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دفتر التمارين الأول

آب

يقول الأب « غيلبرت » أنني قادر على الكتابة والقراءة بطلاقة . اذن ، فبامكاني أن أقتني دفتر يوميات كما يفعل هو . إن اقتناء دفتر للملاحظات اليومية هو من عادات الرجل الأبيض . ولا أعرف ما المتعة في ذلك ، ولكنني سأجرب .

بينما كان سيدي ، المحسن اليَّ ، يستمع الى « الاعترافات » ، ألقيت نظرة على دفتر يومياته . ياه ! انها مخزن حبوب مليء بالملاحظات . هؤلاء البيض يحفظون كل شيء . لقد وجدت في دفتر يوميات الأب غيلبرت الركلة التي ركلني اياها عندما قبض عليّ أقلده في غرفة المقدسات . وأحسست بالألم يعاود قفاي من جديد . أمر غريب ! فقد اعتقدت أنني قد نسيت تماماً هذه الركلة .

« تاوندي أوندا » هو اسمي . فأنا ابن « تاوندي » و « زاما » . وعندما عمّدني « الأب » أطلق علي اسم « جوزيف » . فيّ دم « الماكا » من أمي و « النجيم » من أبي ، وأجدادي كانوا من أكلة لحوم البشر . ولكننا تعلّمنا ، منذ جاء الرجل الأبيض ، أنه لا يجوز النظر إلى الآخرين وكأنهم حيوانات .

يقولون في قريتنا أنني كنت سبب موت والدي لأنني هربت إلى قسيس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبيض قبل يوم واحد من « تكريسي »[1] ، حيث كان علي أن أقابل الثعبان الشهير الذي يرعى جميع الرجال من أبناء جنسي . وأما الأب « غيلبرت » فهو يعتقد أن « الروح القدس » هو الذي قادني اليه . والصحيح أنني أردت مجرد التقرب من الرجل الأبيض ، بشعره الذي يشبه لحية كوز الذرة والذي يرتدي ملابس نسائية ويوزع قوالب السكر على الأطفال السود . كنت واحداً من عصابة الصبية الفاسدين الذين يتبعون المبشّر في تنقله ، من كوخ إلى كوخ ، محاولاً أن يقنع الأهالي بالاهتداء الى الدين الجديد . كان المبشّر يعرف قليلاً من لغة « النجيم » . ولكنه يلفظ ما يعرفه بطريقة رديئة تجعل لكل ما يقوله معنىً فاحشاً . ووجد الجميع في ذلك تسلية ، جعلت المبشر يحقق تقدماً . كان يلقي لنا السكر كما يعلف الدجاج بحبوب الذرة . ويا لها من معركة لتحصل على واحد من هذه القوالب البيضاء ! قوالب ناصعة تستحق كُشوط الركب وتورم العيون وآلام الجروح المبرحة . وأحياناً ، كانت هِبات السكّر هذه تؤدي الى شجار بين آبائنا . فوالدتي تشاجرت ، مرة ، مع والدة صديقي « تيناتي » لأنه لوى ذراعي بقوة لأسلمه قالبين من السكر كسبتهما بأنف مدمّى . تلك المعركة كادت أن تؤدي إلى اسالة الدماء ، فلولا الجيران لشجّ والدي رأس والد « تيناتي » . وهدّد والد « تيناتي » بأن يزرع رمحه في بطن والدي . وبعد أن هدأ الاثنان ، أمرني والدي وهو يحمل خيزرانته ، أن الحق به خلف البيت .

« تاوندي ، أنت سبب كل ذلك . طمعك سيؤدي بنا إلى الخراب . سيظن الناس أنك لا تجد في البيت ما تأكله . هكذا ! قبل تكريسك بيوم واحد تَعْبُر الجدول ، وتذهب لتشحذ قوالب السكر من رجل ـ امرأة أبيض غريب عنك تماماً ! » .

وأما والدي فلم يكن غريباً ، على أية حال . أعرف تماماً ما يمكنه أن يفعل بعصىً في يده . فما من مرة هجم فيها ، على والدتي أو عليّ ، وتعافينا قبل أسبوع .

---

(١) التكريس : احتفال الشعائر والطقوس الذي يبدأ به الانتساب إلى ديانة . المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان بيني وبين عصاه مسافة مطمئنة . هزّ والدي عصاه ، فهسّت في الهواء . وتقدم نحوي ، فتراجعت .

« هل ستتوقف ؟ ما عاد في رجليّ القوة لاطاردك . وتَعلَمْ ، إن لم امسك بك الآن فسأنتظر ذلك مئة عام ، وأعاقبك . فهيا ، تعال وأخلص من ذلك » .

« لم أفعل ما أستحق عليه العقاب » قلت محتجاً .

telegram:@mbooks90

«طيـ - ي - ي - ي - ب»زمجر والدي «أتجرؤ على قول أنك لم تفعل شيئاً ؟ لو لم تكن شرهاً كاللقّام[٢] . . لو لم يكن دم اللقّام ، دم أمك ، هو الذي يجري في عروقك ، لما ذهبت الى « فيا » ، تقاتل كفأر حقير في سبيل قطع من السكر القى بها اليك هذا الملعون الأبيض . . لما لوى أحد ذراعك . . لما تشاجرت والدتك مع أحد . . ولما أردتُ أن أشج رأس والد تيناتي . . . أحذرك ، من الأحسن أن تقف . واذا تراجعت خطوة أخرى فسأعتبر ذلك اهانة لي . سأعتبر ذلك دليلاً على أنك تستطيع أن تنام مع والدتك » .

توقفت هجم عليّ . وأزّت الخيزرانة على كتفي العارية ، فتلوّيت كدودة تحت الشمس .

« استدِرْ وارفع يديك ، فلا أريد أن أقلع لك عيناً » .

« دعني يا أبي » ، رجوته ، « لن أفعل ذلك ثانية » .

« تقول ذلك دائماً حين أبدأ بجلدك . لكنني اليوم سأجلدك وأجلدك حتى ينتهي غضبي » .

لم أستطع أن أصرخ فذلك سيجتذب الجيران ، وسيصفني الأصدقاء بأنني ، فتاة ، فأفقد مكانتي بين الأولاد ـ الذين ـ سيصبحون ـ رجالاً .

وجّه والدي ضربة أخرى تلافيتها بمهارة .

« اذا تماديت في المراوغة فهذا يعني أنك قادر على أن تنام مع والدتي ، جدتك » .

---

(٢) اللقّام : حيوان ثديي شره جداً ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يلجأ والدي ، دائماً ، إلى ابتزاز كهذا ليمنعني من الهرب ويخضعني لضرباته .

« أنا لم أُهِنكَ ، ولست قادراً على أن أنام مع والدتي أو والدتك ، ولن أرضى بأن أضرب بعد اليوم » .

« كيف تجرؤ على هذا الحديث الي ؟ نقطة من ماء ظهري وتتحدث معي هكذا ! سألعنك ان لم تتوقف » .

اختنق والدي غضباً . لم أره يوماً في حياتي بهذا الغضب ، فتراجعت بظهري إلى الوراء وهربت . ولكنه طاردني خلف الأكواخ مسافة مئة خطوة ، ثم توقف . « حسناً ، سنرى أين ستقضي الليل . سأخبر والدتك انك أهنتنا ، ولن تعود إلى البيت إلا عبر إستي » .

قال ذلك واستدار . ووقفت ، لا أدري أين أذهب . عمي ، لا أحبه فهو أجرب . وأكره دخول بيته ، فله ، ولزوجته ، رائحة السمك النتنة . الليل قد حلّ ، ويمكنك أن ترى الآن ، وميض الضوء لذباب النار(٣) . وأصوات الهاونات تعلن أن التحضير جارٍ لوجبة العشاء . سرت بخفة عائداً إلى البيت ، وتوقفت خلفه . تلصّصتُ عبر شقوق الحائط الطيني . كان ظهر والدي اليّ ، وعمي الذي أكرهه ، يقابله ، وهما يأكلان . . رائحة لحم «النيص»(٤) اجرت اللعاب في فمي . هذا «النيص» كان قد وقع في فخ والدي ، وحين وجدناه ، قبل يومين ، كان النمل قد أتى على نصفه . والدتي تشتهر في القرية بحسن طهوها للحم النيص .

« أول صيد هذا العام » قال عمي بفمه الممتلىء .

لم يجب والدي ، ولكنه أشار بيده إلى ما فوق رأسه حيث تصطف جماجم الحيوانات التي اصطادها .

« لن تستطيعوا أن تأتوا عليه » قالت والدتي « لقد أبقيت في القدر شيئاً لتاوندي » .

---

(٣) ذباب النار : حشرة تطلق ضوءاً فوسفورياً متقطّعاً (سراج الغولة) ـ المترجم .

(٤) النيص : حيوان يشبه الفأر ذو أشواك سهميّة حادة يستعملها للدفاع ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تطاول والدي وهو يدمدم بالغضب ، فأيقنتُ أن عاصفة ستثور .

« أحضري حصة تاوندي » صرخ والدي » لن يذوق شيئاً من هذا النّيص ، سأعلمه كيف يعصي أوامري » .

« لكنه لم يأكل شيئاً منذ الصباح ، فماذا سيأكل حين يعود ؟ »

« لا شيء أبداً » أكّد والدي .

« اذا أردت أن تعلمه الطاعَة » زاد عمي « إحرمه من الطعام . . انه نيص لذيذ حقاً » .

نهضتْ والدتي وجلبت القدر . وراقبت يدا والدي وعمي تغوصان فيه . وترامى اليّ بكاء والدتي . ولأول مرة في حياتي فكرت في قتل والدي .

عدت إلى « فيا » . ترددت بعض الوقت ثم طرقت باب القسيس الأبيض . كان في منتصف عشائه ، وحين رآني ظهرت عليه الدهشة . حاولت ، بالاشارة ، أن أفهمه بأنني ألجأ اليه هارباً . ضحك فبانت أسنانه كقمر في الهلال . تسمرتُ عند الباب خجلاً فأشار الي أن أقترب ، وقدم لي ما تبقى من طعامه . كان طعاماً غريباً لكنه لذيذ الطعم . تابعنا الحديث بالاشارة وأدركت أنه قد قبلني .

وهكذا أصبحت خادم الأب « غيلبرت » ،

سمع والدي بالخبر في اليوم التالي . كنت أخشى غضبه . . ذهبت إلى القسيس وشرحت له مخاوفي بلغة الاشارة ، فبدا له الأمر مسلياً . ربّت على كتفي ، فأحسست أنني أتمتع بالحماية .

أتى والدي بعد الظهر . كل ما قاله هو أنني ابنه ، نقطة من مائه ، وانه لا يحمل لي ضغينة ، وسينسى كل شيء إذا عدت إلى البيت . ولكنني كنت أعرف الى أي حد يمكن الثقة بخطاب كهذا أمام رجل أبيض . أخرجت له لساني ، فركبتْ عينيه تلك النظرة التي تأتي دوماً حين يكون على أهبة الاستعداد « ليُلقنني درساً في السلوك » . لكن الخوف لم يتطرق ، هذه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المرة اليّ ، فالأب غيلبرت يقف الى جانبي . وقد بدا وكأن عينيه تطلقان سِحْراً على والدي ، فقد خفض أبي رأسه وعاد محملاً بالخيبة .

جاءت والدتي اليّ ذلك المساء . كانت تبكي ، فبكينا معاً . قالت أنني فعلت خيراً اذ تركت بيت أبي . . وأن أبي لا يحبني كما على الأب أن يحب ابنه . منحتني بركاتها وأوصتني ، اذا مرضت ، أن أغتسل بماء الجدول فأشفى .

قدم لي الأب غيلبرت زوجاً من بناطيل الكاكي القصيرة وكنزة صوفية حمراء . وقد تركتْ هذه الملابس أثراً على جميع الصبية في « فيا » فهرعوا الى الاب غيلبرت يرجون قبولهم لديه .

بعد يومين ، حملني الأب غيلبرت معه على دراجته النارية . لقد نشر ضجيجنا الذعر بين أهالي القرى التي طفنا بها . وها نحن اليوم ، بعد رحلة امتدت أسبوعين ، نعود إلى بيت بعثة سانت(٥) بيير التبشيرية الكاثوليكية في « دانغان » ، تغمرني السعادة ، فقد أسكرتني سرعة الدراجة النارية ، وأسعدني الاحساس بأنني مقدم على اكتشاف المدينة والتعرف على الرجال البيض والعيش كما يعيشون . ولكنني ضبطت نفسي ، وأنا أفكر بأنني أشبه تلك الببغاوات التي كنا، في القرية ، نستدرجها بحبوب الذرةالصفراء.كانت شرهةولذلك كانت تقع في الأسر . وكثيراً ما كانت والدتي تقول وهي تضحك « تاوندي ، إلا مَ سيوصلك طمعك . . ؟ »

لقد مات والديّ ، ولم أعد ، قطّ ، الى قريتنا .

أعيش اليوم في بيت بعثة سانت بيير التبشيرية الكاثوليكية في « دانغان » . استيقظ كل يوم في الخامسة صباحاً ، وأحياناً أبكر من ذلك ، حين يكون جميع القساوسة في كنيسة البعثة . أدق الجرس المعلق في مدخل هيكل المقدسات ، وأنتظر أول « أب » يأتي ليقيم القداس . وهكذا ،

---

(٥) سانت : القديس ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أقوم في كل يوم على خدمة ثلاثة « قداديس » أو أربعة . لقد قسا جلد ركبتي وصار كأنه جلد تمساح . فحين أركع أشعر وكأنني راكع على وسادة .

أما أكثر ما أحب ، فهو تقديم القربان أيام الآحاد . يصعد المؤمنون إلى حاجز المذبح بعيون مغمضة وأفواه مفتوحة وألسنة ممدودة ، فيبدون كأنهم يمطون وجوهاً كئيبة . الأوروبيون يتناولون قربانهم على حدة . . أسنانهم ليست جميلة . لكنني أحب أن أمسّد فتيات البيض تحت ذقونهن ، بطبق القربان الذي أحمله ، بينما القسّ يحشو الخبز المقدس في أفواههن . « يا ووندي » ، خادم أحد القساوسة ، هو الذي علمني هذه الحيلة فهي الفرصة الوحيدة لتحسس فتاة بيضاء .

تحضر لنا الطعام عجوز من « السيكسا »[٦] . غير أننا نفضّل ما تبقى من طعام القساوسة ، اذ نجد فيه ، أحياناً ، بعض فتات اللحم .

*

انني أدين للأب غيلبرت بكل شيء ، فهو الذي أحسن اليّ وأنا مغرم به . وهو مرح ويبعث السرور في النفس . يوم كنت صغيراً كان يعاملني كحيوان أليف مدلّل ، يُحبّ أن يشدّ أذني ويستمتع بمراقبة دهشتي الدائمة من الأشياء طوال فترة تعلّمي . وكان الأب غيلبرت يقدمني الى زوار البعثة من البيض ، كتحفته الرائعة . فأنا خادمه . . خادمه الذي يعرف القراءة والكتابة . . يخدم القداس . . يجهز طاولة الطعام . . ويكنس غرفته ويسوّي سريره . وهو ، بين حين وآخر ، يهبني قميصاً قديماً أو زوجاً من البناطيل القصيرة البالية . لقد عرفني الأب غيلبرت صبياً عارياً تماماً ، وقد علمني القراءة والكتابة . . وما من شيء أثمن من ذلك حتى ولو لبست أردأ الثياب .

*

(٦) السيكسا : بيت انتقال للنساء على أبواب اعتناق المسيحية ، أو النساء اللواتي هجرن عائلاتهن الوثنية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عاد الأب « فاندرماير » اليوم من الأدغال ومعه خمس نساء . يبدوان النساء الخمس مسيحيات أخذهن « الأب » من زوجهن الواحد . خمس نزيلات جديدات « للسيكسا » . لو عرفن بالعمل الذي ينتظرهنّ لفضّلن البقاء مع زوجهن .

الأب « فاندرماير » هو مساعد الأب غيلبرت ، وله أجمل صوت في البعثة . ولذلك فهو ينشد القداس في الاحتفالات الهامة . لكنه انسان مضحك ، هذا الأب « فاندرماير » . . فيوم الأحد ، الذي لا ينشد هو فيه القداس الالهي ، لا يسمح فيه لأحد غيره باستلام التحصيلة . في يوم ، قمت بذلك فجرّني إلى غرفته . نزع ثيابي وفتّشني . وأبقى واحداً من الملّقنين معي طوال اليوم خشية أن أكون قد ابتلعت بعضاً من النقود .

والأب « فاندرماير » هو مراقب السلوك للخدم ومؤتمن الابرشية . لم يحدث أبداً أن قبض علي متلبساً ، فأنا لن أقدر على احتمال ما يوقعه بسيئي السلوك من عقاب . فهو يستمتع بضرب المسيحيين الذين يقترفون الزنا ـ المسيحيين من المواطنين الاصليين بالطبع . . يعريهم في مكتبه ، بينما هو يردد بلغته النجيم الرديئة « ألم تشعر بالخجل أمام الله وأنت تقبّلها ؟ » .

صار يوم الأحد ، بعد القداس ، فترة رُعْب للذين كان الأب « فاندرماير » مرشدهم الروحي .

*

رأيت فتاة فاتنةفي قربان السود . مسّدتها تحت الذقن بطبق القربان كما نفعل مع الفتيات البيض . فتحت احدى عينيها ، ثم أغمضتها . ستعود ، بالتأكيد ، لتناول القربان ثانية .

*

أصيب الأب « فاندرماير » بنوبة ملاريا . وكان طوال الليل يصرخ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بأشياء فاحشة . لقد طلب منا الأب غيلبرت أن لا نتسكع قرب غرفته .

*

مات أبي ، المحسن الي . . مات الأب غيلبرت . وجدوه ، ودراجته ، غارقاً بدمه مهشماً قرب فرع سقط عن شجرة القطن العملاقة التي يسميها المواطنون المحليون « مطرقة البيض » . يقولون أن أبيضين آخرين ، من اليونان ، كان لهما مصير الأب غيلبرت . ففي يوم ساكنة ريحه أسقطت شجرة القطن هذه واحداً من فروعها الضخمة ، كمطرقة هائلة ، على سيارة اليونانيّيْن . وكل ما تم العثور عليه منهما كان كتلتين مطحونتين ، كأنهما لب ثمرة ، في أردية قطنية ، وقد أطبق عليهما الحديد المعلوك . وقد تحدث « القومندان »[٧] ، الذي كان في « دانغان » وقتها ، عن قطع هذه الشجرة . لكن نسي الأمر بعد أن دُفن اليونانيين ، ولم نتذكره حتى هذا الصباح . .

كان الأب غيلبرت يذهب كل خميس الى « دانغان » ليجمع ، بنفسه ، بريد البعثة التبشيرية . وكم كان يبدو فرحاً وهو يفكر برسالة من الوطن . ما أن تنتهي الصلاة حتى يندفع الى الكاراج ويخرج دراجته النارية : ينادي علي أمسكها له ، ريثما يشمر رداءه الكهنوتي ويثبته الى خصره كاشفاً عن ساقين مليئتين بالشعر وعن ردائه الكاكي القصير . ينتهي من ذلك فيستلم الآلة ، ويهبط بثقل على سرجها . وأقوم بدفعها ، بعد ذلك ، حتى ينتظم صوتها المدبدِب ، فينطلق بسرعة كبيرة مخلّفاً وراءه سحابة من الدخان والغبار ورائحة البترول التي تقلب معدتي .

كان تشغيل الدراجة هذا الصباح أصعب منه في أي مرة أخرى . نزل الأب غيلبرت أكثر من مرة عن دراجته وعبث بشيء ما في المحرك . أما أنا فقد كنت أستحم في العرق وأنا أدفعه . شتم الأب غيلبرت وحلَف وأطلقَ

(٧) القومندان : آمر وحدة عسكرية أو قائد موقع أو تحصين . وهو هنا قائد الموقع في « دانغان » ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الدراجة أسماء . . لم أره في حياتي بمثل هذا الغضب . وأخيراً ، بعد تنتيعة أو اثنتين أرعد المحرك . . وانطلق . لمحتُه ، خلال الغبار ، مسرعاً وقد انحنى قليلاً إلى الأمام . . ثم اختفى بسرعة كشيء مسحور .

من كان يقول وقتها أن تلك هي المرة الأخيرة التي أرى فيها الأب غيلبرت؟

كانت الساعة العاشرة حين دخل كبير الملقنين ، الذي كلفه الأب فاندرماير بمراقبتي، الى باب «فيللا» القسيس وهو يولول. إرتمى على الأرض وتقلّب وهو يصرخ « أبي . . أبي ! » . فاندفع الأب فاندرماير خارجاً وهو يطلق سيلاً من الشتائم التي يستطيعها . واعتقدتُ أن « مارتين » سكران بالتأكيد . فقد قالوا أنه يتمعمل هكذا في كوخه حين يسكر .

فتح الأب فاندرماير البوابة وهو ينطلق بالشتائم وقبض على مارتين من معطفه .

« الأب . . الأب . . مات . . في . . في . . » قال مارتين متلعثماً .

أوقفه الأب فاندرماير بعنف على قدميه . ركله . وأشار إلى الممر الذي يفضي إلى مجمّع العمال في البعثة .

« اذهب واسكر في مكان آخر ! إذهب واسكر في بيتك ! » زمجر الأب فاندرماير وهو يدفعه من ظهره بقوة .

وصلتْ ، في تلك اللحظة ، سيارة الاسعاف إلى فناء الكنيسة تتبعها كل السيارات في « دانغان » . غار الدم في عروقي وانعقدت ركبتاي . .

لا ، لا يمكن أن يكون صحيحاً موت الأب غيلبرت . .

ركضت نحو سيارة الاسعاف . . نحو النقالة . وجدت الرجل الأبيض ، الرجل الذي كان كل شيء في العالم بالنسبة لي ، وجدته مسجّى عليها .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اصطدمتُ برجل أبيض طويل العنق ، ثم بآخر ضخم الجثة يميل بلونه إلى الصفرة . دفعاني الى الوراء ، واحدٌ بسوطه الذي لا يفارقه ، والآخر ، بركلةٍ لئيمة . . .

كانت بعثة سانت بيير التبشيرية هناك بكامل أعضائها . واخترقت نساء « السيكسا » الطريق بين جموع الملقنين العجائز ، وأحطن بجمهرة البيض ، وهن يبكين . كان هناك كل من أراد أن يظهر تعلقه بالأب غيلبرت . عمال يتباكون . . تستطيع أن تلحظ ، من خلال وجوههم المتجهمة ، الصعوبة التي يلاقونها في تبليل عيونهم بالدموع . الملقنون بمظهرهم الغبيّ ، يسبّحون بقلق . والمتنصّرون الحالمون يأملون أن يحالفهم الحظ فتحدث معجزة ما بحضورهم . وقد أبدى العمال تعاسة جعلت من الصعب على الأب فاندرماير أن يحرمهم أجرة هذا اليوم . لكن معظم الحضور هناك قد جاءوا لأنه لم يسبق أن أتيحَت لهم فرصة رؤ ية جثة رجل أبيض ـ فما بالك بجثة « قسيس » أبيض ؟ ولم ينقطع عويل هذا الحشد الذي يطوق جمهرة الرجال البيض .

قال الرجل الأبيض ، ذو الرقبة الطويلة ، شيئاً ما لأحد رجال الشرطة في سيارته . نزل الشرطي ، وعدّ خطوات عشر باتجاه الجمهور . ومع كل خطوة كان الجمهور يتراجع . تقدم اثنين من الوصفاء وحملا جثة الأب غيلبرت وسارا بها إلى غرفته . تبعهما الأوروبيون فقادهم الأب فاندرماير إلى غرفة الجلوس . وبعد لحظات ، خرج الأب فاندرماير . نزل الدرج وخاطب الحشد . .

« أبونا جميعاً » ابتدأ حديثه وهو يفرك يديه « أبونا جميعاً قد توفيّ فصلّوا له ، يا اخوتي . صلّوا له . . فالله عادل ، يعطي كل انسان ما يستحق . . » .

مسّد شعره ، وتابع أوامره : « اذهبوا الى الكنيسة . . وصلّوا ، يا اخوتي . صلّوا له ، أبونا جميعاً ، هذا الذي سيرقد بينكم هنا في هذه « البعثة » ، يا من أحبّكم كثيراً . . » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مسح الأب فاندرماير عينيه فتضاعف العويل .

« الله عادل » تابع الأب فاندرماير « انه أبديٌّ . . وهذه ارادته » .

رسم اشارة الصليب ، فقلده الجمهور . وارتقى الدرج ثانية . وعند أعلى الدرج تدلّت يداه الى فخذيه وسوّى رداء الكهنوت .

كان « مارتين » ، كبير الملقنين ، يبكي بالقرب مني . لم أفهم سبب وقوفه الى جانبي بدلاً من أن يقود الملقنين في صلاتهم . فكّ أزرار معطفه البالي فانحدرت الدموع إلى بطنه المجعّدة تحت « وزرته » التي عقدها فوق شعر عانته الأشيب .

« لم يبق لي شيء سوى الرحيل» ، ردد بصوت حزين « لم يبق لي شيء سوى الموت . . . » عرفت أن أحداً ما سيموت فالشمبانزيات كانت تعول طوال اللّيْل . لم يبق لي شيء سوى الرحيل . . سوى الموت . . » .

ابتلعَتِ الكنيسة ذلك الحشد . وأما الأوروبيون فقد انصرفوا ، وبقي واحد منهم للاشراف على النجارين الذين دخلوا الفناء يحملون قطعاً وألواحاً من الصاج . وكان شرطيان ، ببنادق مسنَّكة، يحرسان ، جيئة وذهاباً ، جثمان الأب غيلبرت في غرفته .

بعـد الجنـازة

دُفِنَ الرجل الذي أحسن الي في الجانب المخصص للأوروبيين من المقبرة . جاء قبر الاب غيلبرت قرب قبر ابنة السيد داميوند ـ ابنته من خليلته التي اعترف بها إبنةً فيما بعد . الأب فاندرماير هو الذي قرأ صلاة الدفن . وقد حضر الجنازة كل الأوروبيين في « دانغان » حتى الأميركيين من البعثة التبشيرية البروتستانتية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآن ، فقط ، تحققت من موت الأب غيلبرت فمنذ يوم أمس لم أسمع صوته . البعثة التبشيرية الكاثوليكية في حداد . ولكن الأمر بالنسبة لي أكثر من مجرد حداد . . لقد متُ للمرة الأولى . .

رأيت في الجنازة « فتاة القربان » لقد أغمضت عينها ، مرة أخرى . . كم هي غبية . . !

*

القومندان الجديد بحاجة الى خادم . وقد طلب مني الأب فاندرماير المثول إلى « المقر »[٨] صباحاً . انني أحس بالسعادة فما عدت احتمل الحياة في « البعثة » منذ رحيل الأب غيلبرت . وانتقالي هو ، كذلك ، خلاص للأب فاندرماير . .

سأكون خادم « رئيس الأوروبيين » ، وكلب الملك هو ملك الكلاب .

سأغادر «البعثة»هذا المساء. وسأعيش، منذ اليوم، مع زوج اختي في « الموقع »[٩] . انها حياة جديدة تبدأ . .

يا الهـي . . لتكن مشيئتك . .

*

وأخيراً تحقق كل شيء . . وقَبِلني « القومندان » في خدمته . كنت أتهيأ للرجوع إلى « الموقع » ، بعد أن أنهيت عملي عند منتصف الليل ، حين طلب مني القومندان أن أتبعه الى مكتبه . لقد كانت لحظة مفزعة . .

تفحصني القومندان طويلاً ثم سألني ، صراحة ، ان كنت لصاً .

« كلا يا سيدي ! » أجبته .

---

(٨) المقر : مركز وبيت القومندان ـ المترجم .

(٩) الموقع : اصطلاح يقصد به حي الأفارقة في دانغان ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« لِمَ لستَ لصّاً ؟ » .

« لأنني لا أريد أن أذهب إلى جهنم » .

بدا وكأنه فوجىء بجوابي ، غير أنه هزّ رأسه غير مصدّق .

« أين تعلمتَ هذا ؟ » .

« انني مسيحي يا سيدي » قلت ذلك وأظهرتُ ، مفاخراً ، ميدالية سانت كريستوف التي أضعها حول عنقي .

« يعني أنك لست لصّاً لأنك لا تريد الذهاب الى جهنم ؟ »

« نعم يا سيدي » .

« كيف هي جهنم ؟ »

« سيدي . . انها ألسنة من اللّهب ، وثعابين وشياطين ذوو قرون . لديّ صورة للشيطان في كتاب الصلوات . أنا . . أنا . . أستطيع أن أريك إيّاه » .

هممت باخراج الكتاب من الجيب الخلفي لبنطلوني القصير ، لكن القومندان أشار اليّ أن لا أفعل . وأمضى هنيهة راقبني فيها من خلال سحب الدخان التي كان ينفثها في وجهي ، ثم جلس . كنت واقفاً ولكنني طأطأت رأسي وأحسست بنظراته على جسدي . وضع رجلاً على رجل ثم عاد وأنزلها . وبعد لحظة أشار أن أجلس على كرسي أمامه . مال باتجاهي ومد يده فرفع ذقني وحدّق في عيني .

« حسناً ، حسناً يا جوزيف ، سنكون أصدقاء » .

« نعم يا سيدي ، شكراً سيدي » .

« واذا ما سرقت ، فلن أنتظر حتى تذهب إلى جهنم ، فجهنم بعيدة جداً . . »

« نعم سيدي ، إنها بعيدة . . أين هي ، يا سيدي ؟ »

لم أسأل نفسي ، يوماً ، هذا السؤال . وانتاب سيدي السرور وهو يراقب اندهاشي . هزّ كتفيه وركز ظهره إلى ظهر الكرسي .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« اذن فأنت لا تعرف أين جهنم التي تخشى الذهاب اليها والاحتراق فيها ؟ ! »

« انها قرب « المَطْهَر » ، يا سيدي . إنها . . إنها . . في السماء » .

كتم سيدي ضحكة . وبعد أن عاد إلى مظهره الجاد حدجني بعين كأنها عين نمر . « حسناً ، ها نحن متّفقَيْن . أظنك تفهم الآن لماذا لا أستطيع الانتظار (حتى يذهب جوزيف الصغير إلى جهنم ليحترق) » .

قلّد القومندان رطانة الجنود المحليين وتصنع صوتاً غريباً . ودار في خلدي أن القومندان إنسان مضحك ، فسعلت كي لا يأتيني الضحك . لكنه استمر دون أن يلحظ شيئاً .

« اذا سرقت مني شيئاً فسأسلخك حيّاً » .

« نعم سيدي . أعرف يا سيدي . وان لم أقل ذلك فلأنني اعتبرته أمراً مفروغاً منه ، يا سيدي » .

« حسناً حسناً » قال القومندان بنفاذ صبر .

نهض وأخذ يدور حولي .

« أنت ولد نظيف » قال وهو يتفحصني « لا براغيث . . قميصك نظيف . . ولست أجرباً » .

خطا الى الخلف وألقى عليّ نظرة شاملة .

« أنت ذكي . لقد أثنى عليك القساوسة . . اذن فيمكنني الاعتماد على جوزيف الصغير . ها؟ » .

« نعم يا سيدي » قلت وقد التمعتْ عيناي بالسرور والفخر .

« انصرف الآن ، واحضر كل يوم في السادسة صباحاً . أفهمت ؟ » .

وعندما أصبحت خارج البيت ، في الشرفة ، كان العرق يتصبب من أنفي وأحسست وكأنني خارج ، للتوّ ، من معركة قاسية .

سيدي رجل مكتنز . لساقيه عضلات ضخمة كساقي بائعٍ متجول .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هو من نوع الرجل الذي نسميه « جذع الماهوغاني » . فجذع هذه الشجرة غاية في القوة ، ولا تنثني أبداً للعاصفة .

وأنا لست عاصفة . انني ذلك الشيء الذي يطيع .

*

عند الظهيرة ، راقبت سيدي من شباك المطبخ ، وهو يصعد وصلة كبيرة من الدرج إلى مدخل « المقر » . لم يبد أن هذه الوصلة قد أتعبته كما تتعب الطاهي . . وتتعبني ، بل أن قوته كانت تزداد كلما ارتقى الى الأعلى .

جاءني صوته من غرفة الجلوس يطلب « بيرة » . وحين قفزت لألبي طلبه سقطت قبعتي وتدحرجت على أرض الغرفة حتى قدميه . وفي لمحة سريعة مني رأيت عيونه تصغر حتى غدت كعيون قط في ضوء الشمس . دق الأرض بقدمه فدوّت كطبل . كنت استدرت لأبلغ الثلاجة حين أشار الى القبعة قرب قدمه . كدت أموت هلعاً . .

« هل ستلتقطها ؟ » .

«في لحظة يا سيدي » .

« وماذا تنتظر ؟ » .

« أجلبُ لك البيرة أولاً يا سيدي » .

« ولكن . . » ثم قال بصوت هادىء : « على مهلك . . »

خطوت نحوه خطوة ثم عدت نحو الثلاجة . لكنني كنت أحس به يقترب . رائحته تشتد وتشتد . « التقط قبعتك » .

وانحنيت بوهن لالتقاطها ، فقبض علي بقوة من شعري ، أرجحني دوراناً ، وحدّق في عينيّ . « لستُ متوحشاً . . ولكنني لا أحب أن أخيب أملك » .

قال ذلك ، ووجّه رفسة عنيفة إلى قصبة ساقي طرحتني ممدداً تحت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطاولة . كانت ركلته أقوى من ركلة الأب غيلبرت الأخيرة . وبدا مسروراً بعمله . تمشّى بقلق ثم سألني ، بصوت فاتر ، ان كنت ، الآن ، جاهزاً لأقدم له البيرة . ابتسمتُ ابتسامة واهنة ولكنه ، وقتها ، ما عاد يلاحظ شيئاً . وعندما قدمت له البيرة ، نهض ووضع يده على كتفي .

« جوزيف ، كن رجلاً ، وقبل كل شيء ، فكّر بما تفعله . حسناً ؟ »

خلعت مريلتي عند منتصف الليل . وتمنّيت للقومندان ليلة طيبة .

*

ليلة أمس ، زار « غاليت » رئيس قسم الشرطة ، « الموقع » . سمّي غاليت بهذا الاسم لأن رقبته طويلة مرنة مثل رقبة طائر « الكركزان » . المهم . . غاليت ورجاله قد نزلوا إلى المجمّع الافريقي . كنت قد غادرت « المقر » حوالى منتصف الليل ، وعندما وصلت إلى البيت كان الجميع نياماً . تمددت . . لكنني لم أتمكن من النوم . أغمضت عينيّ وانتظرت النوم أن يأتي . جاء وقت لم أتميز إن كنت فيه نائماً أو صاحياً . وسمعت ، في الحلم ، صرير « فرملات » وغمر البيت ضوء كأنما هو ضوء بدر مكتمل . نهضتُ وتوجهتُ بخفة إلى الباب فأحد ما كان يطرقه بعنف ويصرخ آمراً : « افتحوا . . افتحوا الباب ! » .

نظرت بسرعة خاطفة الى الوراء لأُحَذِرَ نسيبي ودهشت حين وجدته مستيقظاً .

« غاليت ورجاله » . همست في أذنه .

أسرعنا لنفتح الباب فزوارنا قد بدأوا يعلنون نفاذ صبرهم . لكن الباب انخلع قبل أن نفتحه ودخل أربعة من رجال الشرطة يتبعهم « غاليت » ، فاندسست خلف الباب بينما كانت شقيقتي وزوجها ، وهما نصف ميتين من الهلع ، يرقبان « غاليت » ورجاله يقلبون الأثاث . قلبوا تنكة بترول مملوءة ماء فانسكب الماء على « طرّاحتي » . وركل « غاليت »

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابريق ماء فخّاري فتناثر قطعاً . وأمر أحد رجاله فقلب كومة من عناقيد الموز . انتزع « غاليت » موزة وازدردها . ارتجف جسدي خوفاً على شقيقتي ، فعيونها مسلطة على « تفاحة آدم » الضخمة للرجل الأبيض . كان صدرها يعلو ويهبط كمنفاخ الكور حين ازدرد « غاليت » تلك الموزة . رمى قشرة الموز ودار دورتين على كعبه ثم أشار الينا .

جرني الشرطي ذو الشريط الأحمر من خلف الباب وأوقفني أمام رئيسه فأضاء غاليت مصباحه في وجهي . رمشّت وأزحت رأسي ، بحركة غريزية ، الى الوراء .

« اسمك » . قال ضباط الصف الافريقي الذي يقوم بدور المترجم .

« تاوندي » .

« تاوندي ماذا ؟ » سأل رئيس الشرطة .

« تاوندي جوزيف ، خادم القومندان » .

عبس « غاليت » ، فأكّد ضابط الصف ما قلته بأن قال : « إنها الحقيقة ، صح » .

أدار الرجل الأبيض ظهره لي وسلّط ضوء مصباحه الى الظلال حيث تختبىء شقيقتي وزوجها . فقلت :

« انها شقيقتي والرجل زوجها » .

« إنها الحقيقة ، صح » قال ضابط الصف ثانية .

« حسناً » قال « غاليت » وهو يصوّب نظرة خاطفة غاضبة نحو الشرطي الافريقي .

«حسناً ، حسناً » أعاد « غاليت » وهو ينظر إلى كل منا بدوره .

إلتقط موزة أخرى وازدردها ، فضاقت عينا شقيقتي غضباً . وعاودني الخوف عليها . لكن غاليت استدار ، حنى رقبته الطويلة وانصرف . . تلاشى صوت المحركات . . وعاد السكون .

لقد فرّ جميع الأفارقة الى الغابة ، أنذرهم ضابط الصف الافريقي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بصفارته حين وصل « غاليت » ورجاله بيتنا . ولم يقبض « غاليت » على أحد خلال غارته الليلة الماضية . لكنه أكل بعض الموز .

*

استيقظت مع صيحة الديك الأولى . كان الجميع نياماً عدا الحارس عندما وصلت « المقر » . سمعته يتمشى جيئة وذهاباً على الشرفة . تميّزني وتوجه اليّ . سألني ، بعد أن جلس على درج المدخل ، كيف أجد « عين النمر » . وفكرت . .

« آ آ ، هكذا يسمونه اذن » .

« يا رجل » ، قال الحارس : « عين النمر يضرب مثل غاليت . يركلني بقوة ! ركلة كالديناميت . . عين النمر (ليس مزحة) . . » .

telegram:@mbooks90

« نعم » . قلت له « عين النمر أصابنا . . » .

أعلن بوق معسكر الشرطة الساعة السادسة . وسمعت الزئير الهائل للقومندان

« الدوش ـ يا ولد » . ، فسيّدي ، كأوروبي ، هو من المبكرين في النهوض من الفراش صباحاً . بعد خروجه من الحمام سألني ان كنت قد نمت جيداً .

« نعم يا سيدي » أجبته .

« حقاً ؟ » قال القومندان وابتسامة على زاوية فمه .

« نعم سيدي » قلت ثانية .

« كاذب ! »

« لست كاذباً ، سيدي » .

« وماذا عن غارة الليلة الماضية ؟ »

هزّ كتفيه ، وقال إنني لوطيٌّ مسكين . ثم كرع قهوته بامتعاض وصرخ شاتماً الطاهي . . فالقهوة لم تكن حلوة كما يريد . أعطانا نصيبنا من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« يا جماعة الكسالى المتسكعين » وصفق الباب خلفه .

اليوم هو السبت . ويقضي البيض عادة يوم السبت في « النادي الأوروبي » الذي يديره السيد « جانوبولس » . وأما الخدم ، فمنذ الساعة الثانية عشرة يكونون في اجازة

قابلت « صوفي » وأنا في طريق عودتي إلى « الموقع » . صوفي ، خليلة المهندس الزراعي الافريقية ، بدت غاضبة لأمر ما .

« ما الخطأ في يوم راحة ؟ » سألتها .

« انني مجنونة حقاً « قالت صوفي » اليوم الوحيد الذي لا أتفحص فيه مفاتيح خزنته الحديدية الصغيرة هو اليوم الذي يضعها فيه في جيب بنطلونه عند القيلولة » .

« تريدين أن تمنعيه من العودة الى وطنه ؟ » .

« يتبغّى هو وبلده . يصيبني الغثيان حين أتذكر الوقت الذي أمضيته مع هذا اللوطي غير المختون. وماذا جنيت؟واليوم تواتيني الفرصةولا أستغلّها . . لا بد أن ما بين عيني هو وحل وليس دماغاً . . » .

« آ . . ألا تحبين رجلك الأبيض ؟ انه أوسم الرجال البيض في (دانغان) » .

نظرت الي برهة ثم أجابت بحزم .

« تتكلم وكأنك لست أسود . تعلم أن البيض لا يملكون ما نقع بحبه . . » .

« اذن ؟ »

« اذن ماذا ؟ انني أنتظر . . أنتظر فرصتي . بعد ذلك تهرب « صوفي » الى غينيا الاسبانية . . والا ، ماذا تتوقع ؟ اننا لا نعني شيئاً لهم . وظيفتي جيدة ، نفع متبادل . ولكنني أحس بالغثيان والتعب من سماع « صوفي لا تحضري اليوم فسيزورني أوروبي في بيتي » ، « صوفي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يمكنك الحضور ، رحل الأوروبي » ، « صوفي ، حين تريني مع سيدة بيضاء لا تنظري الي ولا تحييني » « الى غير ذلك » .

سرنا صامتين جنباً إلى جنب ، وكل منا منشغل بتفكيره الخاص . وحين رحلَتْ كان آخر ما قالته « كم أنا بلهاء ! » .

ذهبتُ ، حوالي الساعة الخامسة مساء ، لأتسكع حول النادي الأوروبي . كان هناك عدد من الأفارقة يرقبون الأوروبيين يمتعون أنفسهم .

السيد « جانوبولس » هو الذي ينظم كل حفلات السكان الأوروبيين في دانغان . وهو يعيش هنا في دانغان قبل أن يأتي أي منهم ، مع أن التاريخ الدقيق لقدومه لدانغان هو موضوع تخمين . هناك قصة تقول انه الناجي الوحيد من بين مجموعة من المغامرين أُكِلوا ، منذ بضع سنوات قبل الحرب العالمية الأولى ، في المنطقة الشرقية من البلاد . ومنذ ذلك الوقت والسيد « جانوبولس » ، الذي كادَ أن يكون زاداً لمعدة ما ، يتقدم في هذا العالم . فهو ، الآن ، أكثر أعضاء الجالية الأوروبية في دانغان ثراء . والسيد جانوبولس لا يحب الأهالي الأصليين . يحب أن يطلق عليهم كلبه الالزاسي ليعمّهم الذعر والفوضى وتتسلى السيدات البيض .

وقد تحققت هذه التسلية هذا اليوم . فحشد الأفارقة الذين تجمعوا لمشاهدة البيض كان أكثر من المألوف . كنا قد تجمعنا بكثافة حول النادي الأوروبي ، وبدأنا التسلل عبر أشجار « الاسسنجو » حين انطلق السيد « جانوبولس » في رياضته المفضلة . وتحول الذعر المعتاد ، سريعاً ، الى اضطراب مسعور . وقد تضاعف عدد المستمتعين بهذا المنظر لأن خبر حضور القومندان الجديد إلى النادي قد انتشر .

عند بادرة الخطر الأولى صدمني أحدهم فوقعتُ على الأرض وداستني الأقدام . أحسست بكلب اليوناني عند قدميّ ، ولم أدر كيف تمكنتُ من النهوض، وتسلُّق شجرة «المانغا» الضخمة. التجأت الى تلك الشجرة، والأوروبيون يضحكون ويشيرون إلى قمة الشجرة حيث أختفي .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والقومندان كان يضحك أيضاً ، ولم يتعرّف عليَّ ». وكيف يمكنه ذلك ؟ فجميع الأفارقة يبدون ، لهؤلاء الأوروبيين ، متشابهين .

*

حين بلغت « المقر » ذلك الصباح فوجئت بأن الطاهي قد وصل قبلي . وسمعت نوبة مألوفة من السعال . كان القومندان يستحم . جاء صوته ، يناديني ، من خلال باب الحمام المفتوح قليلاً . طلب زجاجة قال أنها قرب سريره . عدت بعد لحظات وطرقت باب الحمام ، فطلب مني الدخول . كان عارياً تحت « الدوش » .

أحسست بارتباك غريب .

« هل أحضرت الزجاجة ؟ » صرخ القومندان « قل . . ماذا جرى لك ؟ »

« لا شيء . . لا شيء يا سيدي » أجبت وقد أحسست بحنجرتي تضيق .

تقدّم مني وانتزع الزجاجة من يدي . وتراجعتُ ، بظهري ، من الحمام . فأبدى القومندان تعبيراً غامضاً وهزّ كتفيه .

كلا ، هذا ليس معقولاً ، قلت لنفسي ، لا بد أن بصري قد أخطأ ، رئيس كبير كالقومندان غير مختون !

بدا لي القومندان أكثر عرياً من زملائي الافارقة الذين يخلعون ملابسهم دون اهتمام ويستحمون في القناة في ساحة السوق . وقلت لنفسي ، اذن فهو كالأب غيلبرت ! والأب فاندرماير ! وهو مثل عاشق « صوفي » !

لقد واساني ذلك الاكتشاف . . قتل شيئاً ما بداخلي . . وتيقّنت أنني لن أخشى القومندان بعد ذلك . وحين صاح طالباً « صندله » بدا صوته مختلفاً ، كأنني أسمعه للمرة الأولى . وتساءلت ، باستغراب ، عما كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يجعلني أرتجف بحضوره .

أدهشه برود أعصابي . فقد صرت أعمل ما يطلبه مني متمهلاً . صرخ فيّ كما يصرخ عادة ولكنني لم أتحرك . في وقت ، كانت عيناه تزرعان فيّ الرعب . وأما الآن فانني أقف بلا اهتمام تحت تحديق هاتين العينين .

« هل غدوت أحمق[١٠] تماماً » قال بحدة وازدراء .

سأبحث عن هذه الكلمة في القاموس .

*

أحضر أحد السجناء زوجاً من الفراخ وسلة بيض . وهذا يعني أن مدير السجن قد عاد من جولته ، فكل الأروبيين يرسلون شيئاً للقومندان لدى عودتهم من الأدغال . والطبيب هو أكثرهم كرماً .

حملتُ الفراخ والبيض الى سيدي فابتلع في الحال بيضتين نيئتين . وقد شعرت بالغثيان وأنا أرقبه . سألته ، بعد ذلك ، ان كان يريد بيضاً نيئاً مع الغذاء ، فأشار الى الباب . . . لكنني عدت لأساعده في انتعال جزمته المطاطية ، فالجو كان ماطراً ، ولمعتّها للمرة الأخيرة . داس القومندان على أصابعي وهو يغادر . لكنني لم أصرخ وهو لم يلتفت .

*

هذا الصباح أتيت في معية « أوندووا » الطبّال . وظيفة « أوندووا » هي أن يعلن ، بطبله ، عن الساعة . جلبه المهندس الزراعي من قريته ليقوم بهذا العمل . أعطاه « ساعة جرس » كبيرة كان يحملها معه أينما يذهب ، وقد علّقها الى حزام جلدي يتدلّى عن كتفه مع وشاحٍ بالٍ . بينما كانت تتدلى دوماً عن كتفه اليسرى ، كحقيبة شحاذ ، « قرعة » مملوءة بالرّوم .

---

(١٠) المقصود هنا « ضعيف الذاكرة » أو « أبله » وقد استعمل القومندان كلمة غريبة بهذا المعنى ، مما دفع « تاوندي » الى القول انه سيبحث عنها في القاموس ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سألته أن يترجم الرسالة التي يوقعها على طبله ، منذ سنين ، وينادي بها العمال . أومأ برأسه ، وتردّد بضع لحظات ، ثم بدأ . .

« ما أوقّعه يجري كما يلي : -

كن . . كن . . كن . . [11]

انهض من الفراش . . انهض من الفراش . .

كن . . كن . . كن . .

كم هو مثير للمتاعب[12] . .

كن . . كن . . كن . .

انه لا يعطيك شروى نقير . .

انه لا يعطي أحداً شروى نقير . .

كن . . كن . . كن . .

ماذا تستطيع أن تفعل معه . .

لا تستطيع أن تفعل شيئاً . .

كن . . كن . . كن . .

انهض من الفراش . . انهض من الفراش

ثم أعلن الساعة » .

« وماذا لو سألك أن تترجم ما توقّعه ؟ ! »

« أما أسهل أن تكذب على الرجل الأبيض »

انه رائع . . « أوندووا » . ليس له عمر محدد ولا زوجة . كل ما لديه ساعته الكبيرة وقرعة « الروم » . لم يره أحد ، أبداً ، سكراناً في الشارع . وفي الليل يبدو أنه يحول نفسه إلى غوريلا . . ولو أنني لا أصدق ذلك .

*

رافقت القومندان الى مدرسة « دانغان » . فمدير المدرسة قد دعاه

(١١) كن . . كن . . الخ : ايقاع على الطبل ـ المترجم .

(١٢) الاشارة هنا الى الرجل الأبيض ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لتناول « كوكتيل » . حملتُ الرزمة التي سيقدمها هدية للسيدة « سالفين » . انها عادة وطنية ، يمارسها الأوروبيون أيضاً ، أن تحمل شيئاً للمُضيف .

تبعد المدرسة عن « المقر » مسافة خمس دقائق . فذهبنا سيراً على الأقدام . وكنت أسير خلف القومندان . الأوروبيون ، دائماً ، يركضون . فقد سار القومندان بسرعة وكأن المدرسين في خطر مميت .

كانت عائلة « سالفين » قد أعدّت طاولة في ظل شجرة جلبتها من الوطن ، وقد زُرعت في احتفال افتتاح المدرسة . كانت السيدة « سالفين » ترتدي فستاناً من الحرير الأحمر جعل ظهرها الكبير يبدو وكأنه « آس القبّة » . وقد صفّفت شعرها كرقم (8) وزينته بزهرة « هيبسكاس »[١٣] حمراء بلون فستانها .

أقبلتْ تبتسم وتمد ذراعيها . أمسك القومندان رسغيها وقبلهما الواحد بعد الآخر ، فتقافزت كأنما سقطت جمرات حارة على رسغيها ، وتكلمت بسرعة جعلت الشك ينتابني في أن ما أسمعه هو ، حقاً ، لغة فرنسية .

ظهر السيد « سالفين » في أحد الشبابيك ثم هبط الدرج مسرعاً . السيد « سالفين » رجل صغير نحيف نحافة البقرات العجاف في حلم فرعون . وقد ارتدى بنطلوناً كتانياً ضيقاً وقميصاً مفتوحاً ليعرض عظام صدره . قدمت الزوجة « القومندان » الى زوجها ، وبقيت أنا بعيداً في الخلف . أشار سيدي فناولته الرزمة ، فقدمها للسيدة « سالفين » التي بدا عليها الارتباك . اختلست نظرة إلى زوجها ، وانطلقت في الاحتجاج ، بينما امتدتْ يداها إلى الرزمة . القتْ نظرة دافئة على القومندان بينما هو يلحّ على قبول هديته ، ثم انهالت عليه بالشكر .

قاد السيد والسيدة « سالفين » القومندانَ إلى الطاولة . جلَسَت السيدة « سالفين » بين الرجلين . واستدعى الزوج خادمه ، عجوز

---

(١٣) هيبسكاس : نبات « الخبيزة الافرنجية » له رائحة زكية ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

افريقي ، ربما هو أكبر الخدم في دانغان سناً . أحضر الخادم الزجاجتين وانسحب بمذلّة .

بدأ السيد والسيدة سالفين حديثاً تباريا فيه في السرعة والذكاء والمرح . وكانت السيدة سالفين ، طوال الوقت ، تحاول استدرار ابتسامة او ثناء . تميل تارة نحو هذا الرجل وأخرى نحو ذاك .

« يا لهذه البلاد » ، كانت السيدة « سالفين » تقول ، « مطر وحر ، ولا مصفف شعر . . وهذا العرق ! لا بد أنك وجدت فرقاً كبيراً عن باريس » .

رفع القومندان حاجبه وأفرغ كأسه .

« لم تحدثني عن مدرستِك » . وجه القومندان حديثه للسيد سالفين .

بدأ السيد سالفين يصفُقُ كفّيه ويفركهما « أنتظرُ قدومك للتفتيش » . قال « انني على وشك انجاز تجربة تعليمية رائدة ، وقريباً سأرسل بهذا تقريراً إلى « ياوندي » . حين قدمتُ وجدتُ مدرسةً مليئة بأجلاف كبار ، أعمارهم عشرون سنة أو أكثر ! ومع ذلك يحاولون الحصول على شهادة المدرسة . طردتهم جميعاً . . كسالى ومعظمهم مصاب بالسيلان . فتيات المدرسة كن حبالى من المدرسين والتلامذة الأفارقة . المدرسة كانت كالمبغى . وحين اطلعت على السجلات وجدت أن أصغر تلميذ سيحصل على الشهادة وهو ابن سبعة عشر عاماً . وأصغر تلميذ في المدرسة عمره تسع سنوات وهو في المرحلة الاعدادية . بعد أن طردتُ كل هؤلاء الأوباش الذين فشلوا في الحصول على الشهادة قمت باعداد صف من الأطفال . صف كهذا لم يكن موجوداً قبل قدومي . شكّلتُه من الأطفال بين الثانية والسادسة . الأطفال الأفارقة هم بمثل ذكاء اطفالنا تماماً . لكنهم وصفوني بالجنون وقالوا انني أعمل على أن أوقظ الرعاع ! حسناً . . في الصف الأخير عشرون تلميذاً تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« رائع » . قال سيدي القومندان « رائع ، سأزورك في يوم قريب . . »

« تغيرت الأمور بعد الحرب الأخيرة ، لكن الناس هنا لا يدركون ذلك . فما عدا الأطفال الذين يعلمهم جاك « قالت مدام سالفين » فالمحليون الآخرون لا يستحقون العناء. كسالى ولصوص وكذابون . . كم من الصبر يلزمك مع أناس كهؤلاء ! » .

سعل القومندان وأشعل سيجارة .

لا أستطيع ، في هذه اللحظة ، أن أميّز شيئاً في هذا الليل سوى ذلك الشهاب الأحمر الذي توهج وسقط فجأة .

*

طلب مني القومندان ، الذي لسبب أجهله ، لا يذهب الى مكان بدون مواطن افريقي في صندوق عربته المقفلة (فان) ، أن أرافقه الى القُدّاس . رفع الأفارقة قبعاتهم باضطراب حين مررنا بهم مسرعين ـ عربة القومندان هي الوحيدة التي تحمل علماً صغيراً ثلاثيّ الألوان ـ وقد خلّفنا وراءنا سحابةً من الغبار الأصفر عالقة في الهواء اللافح بحرارته في نهاية ذلك الفصل الجاف . كانت الكنيسة مطوقة بحشد كثيف من المواطنين المحليين حين بلغنا بعثة سانت بيير . حشد هائل مضطرب متعدد الألوان ، يقف فيه اللون الأبيض والألوان الحمراء والخضراء في جانب والبشرات السود في الجانب المقابل . وسرَتْ في الحشد همهمة لحظةَ ظهر القومندان .

تميّزت صوت الجرس الصغير في هيكل المقدّسات .

كل هذا لا ينفصل عن ذكرى الأب غيلبرت الذي يطلقون عليه اليوم اسم « الشهيد » وذلك ، في اعتقادي ، لأنه مات في افريقيا .

خرج الأب فاندرماير لاستقبال القومندان . انحنى بتلك اللباقة التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تميز رجال الدين والتي يعجز أي رجل عاديّ عن تقليدها . ومدّ القومندان يده . . أمامهما تمثال سانت بيير ، الذي سوّده الطفس لدرجة تسمح بالاعتقاد بأنه افريقي ، وقد رُفِعَ على دعامة كبرج الجرس بزاوية جعلته يبدو وكأنه سيسقط بعد قليل .

وصلتْ سيارات أخرى . وبدا كأن جميع الأوروبيين الذين يمضون أوقاتهم في النادي الأوروبي قد رتّبوا أمر لقائهم في بيت الله هذا . غالبت ، والرقيب الافريقي يسير خلف سيارته . السيدة سالفين وقد أخفت ساقيها المغزليّيْن في بنطلون كتاني جعل قفاها الكبيرة أكثر بروزاً . وتوجّهتْ ، مرة أخرى ، نحو القومندان مادة ذراعيها ، ومرة أخرى ، أجفلت من القبلات على رسغيها . وجلب المهندس الزراعي معه « أوندووا » الذي تغلف بالغبار .

اللحظات التالية شهدت قادمين آخرين ، الطبيب ، فخوراً كعادته دائماً ، بشرشوبته المذهبة التي تتدلى من كتف زيّ الكابتن ، ترافقه زوجته . الأوروبي الذي يعقم دانغان بال د . د . ت . الانستين«دوبوا»، فتاتين أوروبيتين سمينتين بضفيرتي « ذيل الخنزير » وقبعتين من طراز قبعات رعاة البقر . زوجة مدير السجن مع بعض السيدات اليونانيات أتين لعرض ملابسهن الحريرية . وقف كل هؤلاء الأوروبيين في دائرة حول القومندان والأب فاندرماير . وقرع الجرس ثانية . .

هناك مدخل واحد الى صحن الكنيسة اقتحمه بفوضى ، الأفارقة الذين كانوا ينتظرون في الساحة ، وسقط عدد من القبعات في هذا الزحام . . وأما الأوروبيون فقد ساروا وراء الأب فاندرماير وعبروا هيكل المقدسات .

في كنيسة سانت بيير بدانغان تصطّف مقاعد البيض في الجناح القريب من المذبح . يمكنهم من هناك متابعة القداس براحة على كنبات من قصب الخيزران تعلوها الوسائد المخملية . هناك يجلس الرجال والنساء كتفاً لكتف . السيدة سالفين تجلس قرب القومندان . وفي الصف التالي يجلس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غاليت والمهندس الزراعي وقد أنشدّا في صورة واحدة ومالا نحو الفتاتين السمينتين . والطبيب خلفهم يرفع من آن لآخر « شرشوبة » كتافته الضخمة . وتتبعت زوجته ، التي تصنّعت اغفال العالم والانشغال بالقراءة في الكتاب المقدس ، بطرف عينها ما كان يدور بين غاليت والمهندس الزراعي والآنستين « دوبوا » السمينتين . وكانت ترفع رأسها من وقت لآخر لترى أين وصل القومندان ومدام سالفين . وأما الطبيب ، فحين لم يكن منشغلاً برفع « شرشوبته » المذهبة ، كان يكنس بيده الهواء بنفاذ صبر « ليلقش » ذبابة تئز قرب أذنه القرمزية .

صحن الكنيسة محجوز بكامله للأفارقة . وقد جلسوا ، بدلاً من المقاعد ، على جذوع أشجار رُتّبت في صفين . حَشْدُ المؤمنين هذا كان تحت مراقبة ملقّنين كانوا يسيرون في الممشى الرئيسي الفاصل بين الرجال والنساء والعصي تلوح في أيديهم .

دخل الأب فاندرماير ، بعد طول انتظار ، متألقاً برداء الكهنوت اللألاء ، يتقدمه أربعة من صبية المذبح الأفارقة بأرديتهم الحمراء والبيضاء .

دق جرس وبدأ القداس ، والملقنون منشغلون بالصفّين في صحن الكنيسة . سارتْ مرافق القداس على إيقاع صدمات عالية من راح الكفوف على كتب الصلاة . وقف المؤمنون . . ركعوا . . وقفوا ثانية . جلوس ووقوف على هذا الايقاع ، وقد أدار الرجال والنساء ظهورهم لبعضهم بعضاً بتعمّد ليطمئنوا إلى أن أحداً لن ينظر إلى ما يفعله الآخر . وراقب الملقنون كل شيء ، حتى رمشة العين .

هناك ، في المقدمة ، اغتنم غاليت فرصة رفع خبز القربان المقدّس ليشد على جارته ، واقتربت ساقا السيدة سالفين ، بصورة غير ملحوظة ، من ساقي القومندان .

وأخيراً ، رتل الأب فاندرماير « وهكذا كان القداس » ونهض اوروبيون وغادروا عبر هيكل المقدسات . بينما أغلق الملقنون باب صحن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكنيسة ليبقى الأفارقة حتى سماع الموعظة . وسمح لي البواب أن أخرج عندما اعلنت أنني خادم القومندان . ومن على المنبر كان الأب فاندرمايو بلغته « النجيم » الرديئة يقدم ، دون أن يدري ، موعظة زاخرة بالفواحش . .

*

« زعماء »[14] دانغان قدموا لتحية سيدي . وكان « آكوما » أول من وصل . « آكوما » هو زعيم « اللصوص » ، يحكم على أكثر من عشرة آلاف تابع لديه خمس خواتم ذهبية ، يسميها الفرنسيون « الزيجات » ، يلبس كل منها في اصبع من اصابع يده اليسرى . « آكوما » فخور باسم « ملك الخواتم » . وحين يناديه أحد بهذا الاسم يرد عليه ، فوراً ، بالمقطوعة التالية :

« آكوما ملك الخواتم ، ملك الزوجات
الرجل الأبيض . . خاتم واحد .
آكوما لديه أكثر من الرجال البيض
آكوما ملك الخواتم ، ملك الزوجات »
وعليك ، بعد ذلك أن تلمس خواتمه « زيجاته » .

جاء الى « المقر » مع حاشيته ، زوجات ثلاث وعتال يحمل كرسيه ومظلته وعازف « زيلوفون » .

« يا ابن الكلب » قال لي « أين سيدك ؟ » .

صرف الحاشية وتبعني الى غرفة الاستقبال . بدلته سوداء جميلة ، ولكنه في هذا الجو اللاهب ، كما يبدو ، لم يحتمل الحذاء الجلدي فاستعاض عنه بحذاء قماشي خفيف . وقد هبّ سيدي ، حين دخل الغرفة ، مادًا يده لاستقباله ، فقبض عليها « آكوما » بكلتا يديه وهزّها . كان القومندان يسأله ، وهو يجيب ، في كل مرة « نعم ، نعم » ، ويقوقىء كالدجاجة .

(١٤) المقصود رؤساء القبائل الافريقية ـ المترجم .

لقد تظاهر بفهم الفرنسية بينما هو لا يفهم كلمة واحدة منها . ولكن الظاهر أنه قُدِّم في باريس كصديق عظيم لفرنسا .

أما « مانغويم » فهو عجوز ماكر مكر السلحفاة في الأساطير . يفهم الفرنسية ويتحدثها ، ويتظاهر بغير ذلك . وهو يستطيع أن يشرب من الصباح حتى المساء دون أن يظهر لذلك أثر عليه .

« مانغويم » زعيم « اليانيان » يحترمه شعبه كثيراً ، فهو الحي من بين كل أبناء جيله . يلبس زي الرئاسة حين يزور القومندان ،ويخلعه فور خروجه من المدينة الأوروبية . قُتِل أخوه الأصغر وهو يحارب الفرنسيين يوم شن الالمان حربهم الأولى عليهم . ويوم شنوا عليهم حربهم الثانية قتل ولداه وهما يحاربان الالمان . ومانغويم يقول « الحياة كالحرباء ، تغير ، دوماً ، لونها » .

لم يعبُر « مانغويم » البحار فهو حكيم بدون ذلك . انه ابن الأجيال الماضية .

*

الصباح كان منعشاً . عشب نديٌّ ، وقطرات تتساقط عن أشجار البلح فتخشخش على سقف « المقر » المعدني . ودانغان هاجعة تحت غلالة من الضباب النقي جاءت به أمطار الصباح الباكر .

حلق القومندان ذقنه ومعجن شعره . وخرج ، بمعنويات عالية ، يراقب ويوجّه تحميل اللوازم في عربته المقفلة . كان يرتدي ، للمرة الأولى ، بلوفراً أحمر داكناً .

الحارس غادر مركزه وانشغلت قدمه اليمنى الضخمة ببدالة المنفاخ تضغط الهواء في الاطارات الخلفية . والسائق ، وقد اعتلى الصدام الأمامي ، ينهي آخر اللمسات في تلميع زجاج السيارة الأمامي . نزل عن الصّدام واقترب من الحارس الذي كان يقبض على ركبتيه بجهد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بكلتا يديه مع كل ضغطة على البدالة . اختبر السائق العجلات بركلة من قدمه فرنّتْ كوترِ قوسٍ مشدود .

نظر القومندان إلى ساعته ، عندما انتهى كل شيء ، ثم حول بصره الى « المقر » . وأشار اليّ .

« اصعد ، سنذهب في جولة » .

قال ذلك وصفق الباب خلفه وأدار المحرك . ووجدت ، بالكاد ، الوقت لأقفز الى صندوق العربة . سرنا حتى المركز التجاريّ للمدينة ولم تقع أبصارنا على أحد فيه . وأما جماعات العمال الذين مررنا بهم فقد كانوا يتردّدون قبل أن يحيّوا القومندان ، فهم لم يعهَدوا رؤيته ، من قبل ، مبكراً كهذا اليوم .

سار القومندان في الطريق إلى المحطة الزراعية . وهناك ، كان المهندس الزراعي ينتظرنا عند أسفل الدرج وقد نتأت من حقيبة سفره زجاجة « تيرموس » . صعد وجلس الى جانب القومندان ، ثم أخرج رأسه من باب العربة ونظر إلى « الفيللا » .

« ماذا تنتظرين ؟ اصعدي ! » .

كان السؤال موجّهاً إلى ظلّ في الشرفة كنا نسمع صوت تثاؤبه.

« من ؟ » سأل القومندان .

« طاهيتي » أجاب المهندس .

انها « صوفي » . بدت وهي تهبط الدرج وكأنها ستقع من شدة النعاس . أضاءها المهندس بمصباحه ففركت عينيها وأطلقت لعنة بصوت هامس . ورغم ذلك ، يا الهي ، كانت جميلة ! توهجت بشرتها البنية المحمرة كالبرونز تحت ضوء المصباح الغامر . عدّلت صندلها وتقدمت بخطوات مترددة نحو باب العربة حيث تتدلى يد المهندس الزراعي ، فأشار إلى الوراء . رفعت حاجبيها ومطت شفتها السفلى بتعبير امتعاض ، وسارت الى الخلف .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وضعت قدمها على الصدام الخلفي ومدت لي يدها .

« هل صعدت ؟ » صاح القومندان .

« نعم » أجبته .

ناولني المهندس حقيبة سفره . وتحركت العربة .

جلست صوفي بقربي على تنكة بترول فارغة . كانت ملفوفة بثيابها باحكام ، لا يُرى منها سوى ضفيرة جذلة يتدلّى منها فتيل أسود ظهر على جبهتها الناعمة كخطٍّ وشم . وهي ساهمة ، تنظر في استقامة الى الامام كأنها لا ترى الأشجار على جانبي الطريق وهي تتراكض بسرعة مدوّخة .

الريح باردة ، وقد انتشرت رائحة التبغ الأمريكي الذي يدخنه المهندس في غرفة القيادة .

وفجأة انقذفنا في الهواء وعدنا لنرتطم بصندوق « العفش » ، وفي أعماقنا ألم مبرح . « يا مسيح ! . ماذا لديهن . ؟ ماذ لدى النساء الأخريات وليس لدي ؟ ما أريد أن أعرفه ، هو ما لدى النساء الأخريات وليس لدي ؟ » قالت صوفي نادبة .

خلّفتِ الطريقُ المدينة . وزمجَرَت العربة وهي تعبر القرى المجاورة . وبانت الدهشة على الأفارقة بملابسهم الملونة ، وهم يرون العلم الصغير بألوانه الثلاثة . وبين حين وحين كان يندفع حشد ما من كنيسة طينية صغيرة تتدلى في شرفتها قطعة من قضيب سكة حديد تنوب عن الجرس ، أو تخرج بُنَيّات صغيرات عاريات من باب نصف مغلق ، يركضن ثم يقبعن تحت أشجار « الكبّاد » التي تسوّر جانبي الطريق . وكادت انحناءة عنيفة أن تقذف بنا الى الرصيف .

« يا مسيح ! » صرخت صوفي « ماذا لديهن وليس لدي ؟ ! » .

استدارت اليّ ودمعتان كبيرتان تنزلقان على خديها ، فوضعت ذراعي على ذراعها . مسحَتْ عينيها بردائها « يا لأخلاقهم الحميدة ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هؤلاء البيض . . مع أنهم لا يظهرونها الا فيما بينهم . . ان أردافي حساسة كأرداف السيدات اللواتي يستقبلونهن في غرفة القيادة . . » .

عاودت صوفي البكاء . أغمضتْ عينيها فاستحالتْ رموشها المبللة بالدمع كخصل صغيرة من الشعر الأسود . والتقت عيناي بعينيْ المهندس الخضراء عبر النافذة الخلفية لغرفة القيادة ، فأشاح رأسه بسرعة .

خلّفت العربة وراءها تلك البقعة التي أغرقها مطر البارحة ، وهي الآن تَرتجُّ فوق طريق ليست سوية ولا وعرة . كنا نمر ، بين آن وآخر ، عبر فضاء في الغابة . أكوام الحجارة المقتلعة تدل على أن العمل في تقدم . وبين الحصى ، الذي يفترض أن يكون سطح الطريق ، نمت شجيرات صغيرة ، وتناثرت ثمار أشجار « المظلّة » .

الارتجاجات المستمرة تعلن أننا الآن نجتاز أرضاً موحلة صُفَّت على سطحها سوق نباتات ضخمة غُطّيت بالصلصال الأحمر لتزداد ثباتاً . وقد استحال الصلصال إلى وحل أحمر كالدهان .

عوت العربة وطقطقت وزمجرت ، ثم اندفعت في تلك الأودية المتلوية لتصعد جوانب تلال شديدة الانحدار . وفي الصندوق الخلفي للعربة كنا ، أنا وصوفي ، كأننا في رقصة أرجحة . رؤوسنا تومىء باستمرار كأننا في سبات . وبدفعة مفاجئة ، كأنها « حازوقة » ، انقذفنا كتلة واحدة من فوق صندوق « العفش » ثم هبطنا بعد لحظة لتصطدم أقفيتنا به .

صوفي ما عادت تشكو . لم تقل شيئاً . جفت دموعها تاركة على خدّيها خطين من لون لا يمكن وصفه .

أخذت حرارة الجو ترتفع . وقد مرت العربة ، للتوّ ، بالقرب من « كثيب نمل » ضخم ، عليه خربشة بالكريوزوت[١٥] (٦٠ كم) .

(١٥) الكريوزوت : أحد مشتقات قطران الفحم يستعمل في حفظ الخشب وكعلاج للسعلة - المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انحدرنا ، بسرعة كبيرة ، تلة كأنها بلا نهاية ، سارت بعدها الطريق باستواء . وصار السير سلساً كالسير فوق طرقات دانغان ذاتها . ولاحظت ، فوق رأسي ، أننا نعبر أقواساً من النخيل المتشابك . لقد بلغنا الهدف ، فأبطا القومندان وراح ينظر من خلال النافذة وقد بدت عليه الدهشة ، فكل شيء نظيف ومرتب ، وبعد أن توغلنا ستين كيلومتراً في الأدْغال فان أمراً كهذا لا يمكن توقعه . لا حُفر ولا حشائش أو روث . وقد اختفت أكوام الزبالة من الخنادق وتم تنظيف كل شيء ، نظافة كاملة لا يمكن أن تكون حديثة العهد .

في البعد ارتفع صوت طبل ثم لغط واضطراب . انه احتفال كبير يُعدّ لنا . وأخيراً استوت القرية أمام عيوننا وهي تعمر بضجيج وحركة من الصعب أن يكونا معتادين . بحر من الآدميين في ساحة القرية وأصوات حادة لنساء تتردّد . نساء يعوِلن وقد وضعن أيديهن أمام أفواههن فجاءت صرخاتهن كصوت صفارة المنشرة الأميركية في دانغان . ثم انفرج الحشد ليفسح طريقاً للعربة التي توقفت أمام شجرة « مظلّة » ، شُذِبّت منذ وقت قريب ، يرفرف علم على قمتها .

فتح باب العربة رجل مسن ، ظهره كالسنام ووجهه مجعد كمؤخرة سلحفاة . هزّ القومندان يده مصافحاً وأرخى المهندس يده في يد العجوز . وراحت النسوة في الصياح من جديد . وصرخ شاب يرتدي « عمامة » حمراء : « سكوت ! » . كان عارياً حتى خصْره ويرتدي وزرة . لكن « العمامة » تشير الى أنه مرافق الزعيم ومفوضه . وأما الزعيم فكان يرتدي جاكيتة كاكي خيطت أشرطة مذهبة على أكمامها ، بصورة تنم عن استعجال ، وعلى جانب الأكمام خيط شريط قطني أبيض .

صاح رجل متوسط العمر يرتدي سترة « منامة » فوق وزرته « الى الأمام انظر ! » فقفز الى الأنظار ثلاثون طفلاً لم يثيروا قبل ذلك الانتباه .

« الى الأمام سر ! » أمر الرجل .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقدم تلاميذ المدرسة أمام القومندان . وصاح المدرب ثانية « الى الأمام أنظر ! » . ظهر الهلع على وجوه الأولاد ، فتكوّموا حول بعضهم كفراخ أبصرت حداة . وزّع المدرس عليهم « نوتة » النشيد وقاد الايقاع بنقر على طبله . وغنى الأطفال . غنّوا دون توقف بلغة لا هي لغتهم ولا هي بالفرنسية ، بل هي رطانة يعتقد أناس القرى بأنها فرنسية ويفترض الفرنسيون انها اللغة الوطنية . وحين انتهوا من الغناء صفق الجميع .

قاد « الزعيم » البيضَ الى كوخ أُعِدَّ لاستقبالهم . أرضية الكوخ قد كنست ، وآثار الفرشاة ما زالت ظاهرة على الجدران الصلصالية البيضاء . السقف أخضر ، فقد عُرِّشَ حديثاً بِسَعَفِ نخيل « الرافيا » . وفي هذا الحر الخانق كان جوف الكوخ يبعث على الراحة فعلاً .

« انه كوخ فاخر » . قال القومندان وهو يروّح نفسه بقبعته .

« ليس كوخاً » . صحح المهندس « انه بيت ، جدرانه من الطين . الكوخ الحقيقي الذي يُبنى من القش ، بكامله ، لا يوجد اليوم إلا عند الأقزام » .

أكمل الأبيضان حديثهما على كرسيّين مريحين على الشرفة ، بينما كانت صوفي تساعدني في تجهيز « فراش السفر » الذي حملناه معنا . ثم نشرنا « الناموسيات » . وبعد أن أصبح كل شيء جاهزاً سألتُ القومندان إن كان يحتاجني لأمر ما .

« ليس في هذه اللحظة » أجابني .

وسألت « صوفي » المهندسَ السؤال نفسه . وجاءها الجواب نفسه ، بكل كلمة ، بينما كان المهندس يحدق في « بوز » حذائه .

كان مرافق الزعيم في انتظارنا . « تكّ » كتافيته بطرف اصبعه وطلب منا أن نتبعه .

« ستنامون في بيت زوجتي الثانية » قال بارتياح كبير .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان كوخاً بلا نوافذ . بيّضت واجهته الأمامية للمناسبة. ومن خلال الضوء الذي نفذ عبر الباب الواطىء أمكننا رؤ ية حوض غسيل قديم ترقد فيه دجاجة تحتضن بيضها .

« هذا هو بيت زوجتي الثانية » قال المرافق بابتسامة عريضة . « البئر والجدول على الجانب الآخر من الفناء ، والمرحاض يمكن أن تشتما رائحته من هنا » .

« الفيل لا يتعفن في مكان خفيّ » . قالت « صوفي » بنبرة جافة .

« بالضبط » . قال المرافق وهو يبتعد .

وبعدما أصبح خارج مرمى السمع نادى علينا .
«سنرسل لكما ، في الحال ، الطعام لتطبخوه » .

عضّت صوفي اصبعها ومررت يدها على شفتيها[١٦] . وتجهمت كأنها تقول « اقبلي يا شجاعتي » . ودخلنا الى كوخ الخدم . الخارج كان نهاراً ، فدخلنا إلى الظلام . . .

انحنت « صوفي » فوق الموقد . جمّعت الجمرات ونفخت عدة مرات فشبّ اللهب ، وأضاء الظلام ، وأظهر كومة من عناقيد الموز فوق مناصب من الخيزران . كنت أمد يدي لالتقط واحدة حين جمدّتني نوبة من الضحك المنفلت .

« ما الذي يضحكك ، الآن ؟» سألت صوفي .
«لا شيء . . لن تفهمي . . كنت أفكر في غاليت » .

كانت الاحتفالات ، خارج الكوخ ، في أوجها . الرجال البيض يشاهدون رقصة « البيلبا »[١٧] ، وقد أصابهما الملل فالرقص كان رتيباً . دخلا إلى البيت والنهار في منتصفه ، فقدمتُ لهما المؤ ونة التي حملناها من

---

(١٦) اشارة تدل على الدهشة .

(١٧) بيلبا : رقصة يتأرجح فيها الجذع والارداف .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« دانغان » . وعند القيلولة طردا الراقصين قائلين أن لهم ضجيجاً مزعجاً . فانصرف الراقصون ، وهم يتظاهرون بالاستياء من الاساءة اليهم ، وقد غرقوا بالعرق والغبار .

جاء الزعيم ، بعد الظهر ، ليقدم بنفسه الفراخ والماعز وسلّة البيض وثمار « الببو » التي ينوي التضحية بها للرجال البيض . دعَوه ليشرب معهم كأساً من الويسكي فبدا عليه الاحساس بالفخر لمجالسة الأوروبيين . وذهب الجميع ، بعد ذلك ، الى البيت الذي تعقد فيه جلسات النقاش .

حلّ المساء ، والرجال البيض قد أتعبتهم الرحلة ومناقشات اليوم . تناولوا ، بالكاد ، شيئاً من وجبة العشاء . وتمدّد القومندان على سريره فركضتُ أنزع بسطاره . وبلَغتْ أسماعنا ، خلال ذلك ، همهمة حديث على الشرفة بين المهندس وصوفي .

تمنيت للقومندان ليلاً طيباً . وعندما كنت أمر بالباب نادى المهندس عليّ ، وهو لا يزال في الشرفة يرتشف الوسكي ، والليل في أوله . تقدمت منه يقودني وهج سيجارته الأحمر .

« ستنام مع صوفي في نفس الكوخ . أليس كذلك ؟ » سألني .

« نعم . . . نعم سيدي » .

صمت لحظة ثم استرسل .

« سأُدخلها المستشفى بمجرد عودتنا الى دانغان . سأدخلها المستشفى . . »

وقف ، واستأنف الحديث .

« صوفي . . ائتمنني والدها عليها . . لكن ، لِمَ أقول لك ذلك ؟ سأُدخلها المستشفى . . وأعرف أين أجدك » .

شدّ أذني .

« أعرف دائماً أين أجدك . . يمكنك أن تنصرف » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سمح لي بالانصراف . وعبر الظلمة رأيت يديه تتحركان بتعبير احتقار كأنما لمس شيئاً قذراً .

كانت صوفي في الساحة تنتظرني . وسرنا بصمت الى كوخنا . قوقأت الدجاجة حين دفعت صوفي الباب . جمّعت الجمرات ونفخت عليها فتراقص لهب أضاء الكوخ .

أوصَدَتْ صوفي الباب وتمددت على السرير . ورويداً ، خمد اللهب في الموقد ، وغابت حواف اسرتنا في العتمة . تقلَّبَتْ صوفي فصّرت عصي سريرها الخيزرانية .

« مضى وقت طويل لم أنم فيه على سرير من الخيزران » قالت صوفي « هذا يذكرني بأمي . . »

وبعد لحظة قالت : « منذ وقت طويل لم أنم مع (ابن بلد) في كوخ واحد » .

telegram:@mbooks90

تثاءبتْ

« أَقَطَعوا لسانك ؟ ألن تتكلم هذه الليلة ؟ » .

«فمي متعب » .

«يا لك من رجل ! حقّاً ، لم أصادف من قبل رجلاً مثلك . تنام في غرفة مقفلة مع امرأة وتقول أنّ فمك متعب . اذا قلت ذلك للناس فلن يصدقني أحد سيقولون (ربما لأن سكّينهُ حافية يفضل أن يحفظها في غمدها) » .

« ربما! » قلت وقد سرّني ما قالت .

« وحتى لو قلت لهم لقد اعترف بذلك فلن يصدِّقوا . . اسمع ، أتعرف ما اضطر عشيقي إلى قوله ونحن في الشرفة ؟ هل أنت نائم ؟ » .

«كلا ، انني أصغي » .

استمرت في ذلك الحوار الوحيد الجانب .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«بدأ أول الأمر بأسماء لأشياء تؤكل. فهو يفعل ذلك دائماً حين يصل إلى مسّ جسدي بشفتيه أو خلال أنينه وهو يمارس شغله . يناديني « ملفوفتي » « يا فرختي » . قال أنه اصطحبني لأنه مولع بحبي ، ولأنه يكره أن يتركني في دانغان وحيدة مع الملل . والحقيقة أنه ماكرٌ ، يخشى أن يتركني في دانغان مع العجوز « جانوبولس » . وجانوبولس ، على كل حال ، بعمر جدّي . قال أنني يجب أن أترك عشيقي لأنه ما عاد يملك مالاً . ولكنني أفضل خليلي على ذلك العجوز التافه . وقال لي أيضاً أن يخشى رئيسه ، القومندان ، لذلك لم يستطع البوح بأنني خليلته وقال أنني طاهيته . وذلك لا يهمني بشيء . ما يغيظني هو قوله للقومندان أنني طاهية . استغرب كيف فكر في ذلك ، فهل أبدو كطاهية ؟ »

« لا أعرف ، فأنا لست رجلاً أبيض » قلت لها .

« أنت .. أنت لست كأي رجل آخر .. ماذا قال لك في الشرفة ؟ »

« لا شيء .. لم يقل الكثير . أرادني أن أعتني بك .. »

«آه ، هؤلاء البيض .. » انفجرت صوفي « يمكن أن يموت الكلب جوعاً وأمامه لحم سيده . هم لا يدفنون الكبش حتى قرنيه .. يدفنونه بكامله » .

صار صوتها يصلني من مكان بعيد .. فأبعد . وللحظة بدا كأنني أسمعه في الحلم ، ثم رحتُ في نوم عميق .

*

كنت مستيقظاً مع أول كبش عرّج على كوخنا يحك جلده بحائطه . ضوء النهار قد نفذ عبر فجوات حصيرة الرافيا في السقف . وتصل إلى سمعي أصوات الكبوش تطارد الاناث في الخارج . وصاح ديك . وفي البعد كان يسمع صوت جرس أو ربما قطعة من قضيب سكة حديد . صوفي لا تزال غافية ووجهها إلى الحائط . نهضتُ وطعنتها بقبضة يدي

فاستيقظت بعد أن أطلقت عدة شتائم . رسمتْ ابتسامة واهنة وصبّحت عليّ بالخير . سوّت ملابسها باستحياء ، فخلال الليل كانت قد تعرّت حتى خصرها ، كاشفة فخذين ناعمين .

فتحتُ الباب فتسربتْ ، مع رائحة الصباح المنعشة ، رائحةُ الماعز وملأتِ الكوخ . ولحقتْ بي صوفي إلى الشرفة .

«لا بد أنهم يغطون في نومهم » ، قالت « فأمس مساء كان التعب قد هدّهم » .

سرنا في الطريق إليهم . فتناهى الى أسماعنا نموذجان من الشخير . واحد رفيع حادّ كأنه نقيق ضفدع .

« هذا لخليلي » قالت صوفي .

الآخر ، للقومندان بالتأكيد » أضافت صوفي « فأنا لا أعرفه » .

كان القومندان قد أمرني أن أوقظه باكراً ، فطرقت الباب بالحاح .

« ما هذا ؟ » صاح المهندس .

« القومندان أمرني أن أوقظه باكراً » . أجبت .

« حسناً ، حسناً » غمغم المهندس .

سمعنا خرخشة معدنية لابزيم حزام ، ووقع أقدام تقترب ثم فتح المهندس الباب ، تفوح منه رائحة اللحم الطازج وروائح أخرى خفيفة يصعب تمييزها . وهي نفس الروائح التي أشمّها في المقر كل صباح . فرك المهندس عينيه ومسّد شعره المنفوش مثل « قلقولة »[١٨] في لباس طفل رضيع . تثاءب فلمعت أسنانه الذهبية . دفع يديه في جيبه ونظر إلى صوفي ، أولاً ، ثم اليّ . بدا للحظةٍ شاحباً ذابلاً وفي اللحظة التالية ، احمر متورداً . سلّط عينيه الى عينيّ ، بحدّة كأنما أغفل أي شيء آخر . وتقلصت زاوية فمه الدقيق وارتعشت . في تلك اللحظة ، كانت

---

(١٨) القلقولة : كرة من الخيوط تتدلى من لباس الطفل عند العنق أو القدمين ـ المترجم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظرة واحدة الى وجهه كافية لتدفع أرملة ، فقدت زوجها الثاني ، الى الاغماء .

«لا يستطيع أحد أن يتجهم مثل السيد » . قالت صوفي وهي تزعق بالضحك .

«إخرسي » . زمجر المهندس وهو يخبط الأرض بقدميه .

تجمدت الضحكة على وجه صوفي . وأحسستُ بوخز في ظهر عنقي .

«ما الذي يجري ؟ » صاح القومندان .

« الخدم . . » قال المهندس بلهجة احتقار ، وتقدم على أطراف أصابعه بضع خطوات في خط متعرج . تغير لونه من الأحمر إلى لون شاحب ثم إلى ممتقع ذابل .

«سنعود إلى دانغان هذا الصباح » قال بصوت أجش « لقد أصابتني حمّى خلال الليل » .

«جوزيف ، إبدأ التحزيم . . سنعود هذا الصباح » جاء صوت القومندان من الكوخ .

ان خبراً كهذا يصعب تصديقه . زوجة القومندان تصل صباح الغد الى « ياوُندي » ! لقد تضرّج القومندان بالحمرة حين فضّ الورقة الزرقاء . اتكأ على الحائط كمن أشبع ضرباً ، وراح يتكلم بصوت عال كلمات مبعثرة . وهذه هي عادة الأوروبيين التي لا تستطيع أن تعرف منها ان كان الأمر قد سرهم أم لا .

وقفنا ، الطاهي والحارس وأنا ، لا ندري ما نفعل .

استدعانا القومندان وأطلعنا على الخبر المفاجىء . فأظهرنا كم نحن سعداء له . وقد أدهشه ضحكنا وضجيجنا ـ كنّا نصفّق أيضاً . ابتسم بفتور ثم أوقفنا بنظرة . أمرنا أن نرتب له كل شيء . وكتب بعض الملاحظات للطبيب ومدير السجن وغاليت ثم انطلق الى « ياوندي » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعرف الآن ، لماذا يختلف القومندان عن الرجال الأوروبيين الآخرين بدون زوجات ـ والذين يرسلون أولادهم إلى « الموقع » ليستأجروا « أماً » لهم . ترى كيف ستكون زوجة القومندان ؟ هل ستكون ربعة مثله ؟ ومثله ، سريعة الغضب . . ولكنها تخفي رقة قلب ؟ آمل أن تكون جميلة ـ أجمل النساء اللواتي ترتدن النادي الأوروبي ـ فالملك يجب أن يحظى دائماً بأجمل زوجة في المملكة .

*

وأخيراً وصلتْ !كم هي جميلة ! . . كم هي لطيفة ! كنت أول من رآها .

فما أن أنهيتُ كنس الشرفة حتى تميّزتُ صوت سيارة سيدي . لم أخبر الطاهي بل اندفعت بسرعة الى الحارس الذي كان في غفوة . وكم كان مضحكاً أن تراه وقد هبّ من غفوته وقدّم السلاح[١٩] دون أن يعطيه أحد أمراً .

نزل سيدي من السيارة فركضت لأفتح السيارة للسيدة . ابتسمت لي فرأيتُ أسنانها الناصعة كأسنان فنياتِنا ـ وهذا غير عاديّ . أحاط القومندان بذراعه خصرها النحيل كخصر دبور وقال لها « هذا هو تاوندي ،خادمي» . ومدّت لي يدها أحسستُ بكفِّها ناعمةصغيرةلينة في يدي الكبيرة التي استوعبتها كجوهرة ثمينة . واحمّر وجه السيدة ، ثم احمر وجه سيدي . وأسرعت لأنزل الحقائب من السيارة .

*

سعادتي لا تعرف ليلاً أو نهاراً . لا أعرف لماذا ، ولكنها سعادة غمرت كل كياني . سأغني مع « فلوتي »[٢٠] ، وأغني على ضفاف

---

(١٩) تقديم السلاح : تحية عسكرية ـ المترجم .

(٢٠) فلوت : آلة موسيقية تشبه الشبابة ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأنهار ـ لكن الكلمات ستعجز عن التعبير عن سعادتي . لقد أمسكتْ بيد مليكتي فأحسست أنني حي حقيقة . ومنذ اليوم ، يدي مقدسة وستظل بعيدة عن مناطق جسدي السفلى . يدي ، منذ اليوم ، ملكُ مليكتي ، ذات الشعر الأبنوسي وعيون الظباء والأديم الوردي الناصع كالعاج .

سرتْ في جسدي انتفاضة لِلمْسِ يدها الصغيرة الرطبة . وارتجفت هي كزهرة رقّصها نسيم عليل . حياتي امتزجتْ بحياتها مع تلك اللمسة . ابتسامتها منعشة كماء الربيع ونظراتها دافئة كدفء شعاع شمس قبيل الغروب ، يغمرك بضوء يدفء أعماق قلبك . إنني أحسّ بالخوف . . أحس بالخوف . .

*

تجولت السيدة في بيتها الجديد ، وهي ترتدي سروالاً فضفاضاً أبرز قوامها الرائع .

بدأت بزيارة للمطبخ . هنّأت الطاهي على نظافة القدور والمقالي وكذلك على وجبة « الحمام بالأرز » التي أعدّها . وطار الطاهي من الفرح ، وانفتح بالحديث عن سنوات خبرته الثلاثين ، وكيف أنه كان طوال الوقت « طاهياً عظيماً » ، فغابت الضحكة عن عيني « السيدة » ، وقالت له ، مع نظرة حادة « في المرة القادمة خفّفْ من البهار » . واتّسعت عينا الطاهي بالدهشة .

بعد ذلكَ ، ذهبنا الى « حديقة ـ الماعز » .

« كم هي لطيفة . . كم هي جميلة ! » كانت السيدة تتمتم طوال الوقت . وسمحتْ للماعز أن تلحس كفيها . توقفت قرب خميلة من الورود والهيبيسكاس ، وانحنت على كل زهرة تتنشق بعمق أريجها ، وأنا أقف في الطرف المقابل من الخميلة وقد نسيتْ وجودي .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أُحسُّ ، وأنا أكتب هذه الكلمات ، بتعاسة تفوق تعاستي يوم جنازة الأب غيلبرت .

*

في أول سبت « للسيدة » في دانغان ، هجر الأوروبيون النادي الأوروبي إلى « المقر » . عالم دانغان الأبيض بكامله كان هناك . ارتدت السيدة ملابس بيضاء فتألّقت كزهرة حديثة التفتح . كانت السيدة ، لفترة ، مركز الدنيا ، والعالم كله يرفرف بأجنحته حولها . سيدة تحسُّ بحضورها . والقومندان يتنقل وقد بدا عليه جليّاً ذلك الرضى الذي يبدو على رجل يعرف أنه تزوج من امرأة جميلة . وقد ظهر عليه التيّه والابتهاج وهو ينادي علي « أقول ، يا . . جوزيف . . » لأول مرة بهذه الطريقة . يا لهذا الاختلاف الذي يحدثه الحب ، والمرأة ، في قلب الرجل ! . .

وبينما كان الرجال كلهم اعجاباً بالسيدة ، فشلت السيدات في اخفاء مرارتهن ، من الكسوف الذي ألم بهن ، تحت الابتسامات المصطنّعة . فالسيدة سالفين بدت كمصباح زيتي تحت وهج الشمس . فسطوع جمال « السيدة » كشف كل تلك الأشياء التي نسي « الرب العظيم » (ولا بد أنه كان الشيطان في نظر السيدة سالفين في تلك اللحظة) أن يُكملها ، في أولئك السيدات اللواتي كنّ محط الاعجاب في دانغان . السيدة غاليت كانت محشوة داخل سروالها الفضفاض مثل « الكاسافا »[٢١] في ورقة موز . وبدت الآنستان « دوبوا » كزوج من الأكياس . وقد ران الصمت على الزوجات اليونانيات الثرثارات عادة . واقتصر حضور السيدات الأميركيات ، من البعثة التبشيرية البروتستانتية ، على ضحكهن المتقطّع .

كانت « السيدة » للرجال كأنها رؤيا . نسوا الاهتمام الذي كانوا

---

(٢١) الكاسافا : نبات المانيهوت ـ ذكر سابقاً ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يغدقونه على زوجاتهم في شوارع دانغان . فلا اهتمام الآن الا بالسيدة . لكن أحداً منهم لم يفلح في اجتذاب اهتمامها . . .

وكانت لحظتي الرهيبة حين لمحت عينا « السيدة » تحومان وتستقران لحظة ، بصورة غامضة ، على المهندس . وتقابلتْ ، لومضةٍ ، عيناي وعيناها من فوق كتفه . فأحسست بارتباك كارتباكي يوم وقع بصري على عضو القومندان غير المختون .

« هاي ، هل غفوت ؟ » قال الرجل الذي « يعقم » دانغان وهو يرفع كأسه الفارغة .

«يا إلٰهي ! » قال ثانية « كأنه مصاب بمرض النوم » .

توجّهتْ كل الأنظار اليّ .

« تعال يا جوزيف ، تعال » . قال القومندان وهو ينقر الطاولة بولاعته .

فتحتُ زجاجة ويسكي وسكبتُ منها في كأس الرجل ، ولم أتوقف الا حين صاح « كفى ! كفى بحقّ الميلاد المقدس » عدة مرات . فانتشر الضحك .

« يا رجل » ، قال غاليت ، محاولاً تقليد لغة الرطانة لسنا مثل « شرّيب محليّ » .

وضحك الجميع مرة أخرى .

« تدرين ؟ » قال غاليت وقد لوى عنقه الطويلة نحو « السيدة » ، وأشار اليّ .

« كيف يشرب هؤلاء (الفتية) المشروب ! . . أمر لا يصدق . . »

التفت جميع الأوروبيين اليه . فتلعثم ومسّد شعره الى الوراء ، وتابع :

«مرة . . مرة . . في جولة . . » .

حكّ أذنه واحمر وجهه .

« سألتُ (زعيماً) عمّا يريده هدية لرأس السنة : أتعرف ما قال ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صدقاً . . أن تتحول جميع الأنهار الى (براندي) » .

رفع الدكتور « شرشوبته » على كتفه ، وأفرغ كأسه ، وقال :

« دائماً . . لدينا نقص في الكحول في المستشفى . . شيء مخيف . . كل ما أفعله لأضع حدّاً لهذه السوق السوداء (أثار التعبير همهمة من الضحك) ، بالكحول تركيز ٩٠ ٪ ، يجد الممرضون الوسيلة للاحتيال عليه » .

سعلتْ السيدة سالفين لتمنح نفسها الشجاعة ، فاتجهت الرؤوس اليها . كانت ، هي وزوجها ، كأنهما منسيين .

« أول ما يشير إلى قدوم خادمي هي هبّة من رائحة الكحول وعرق صبيّ لم يغتسل ، آتية من الشرفة . . » .

لم يحالف هذا الافشاء أيّ نجاح ، فقد نظر السيد سالفين الى السقف ، وخيم الصمت على الغرفة .

حاول السيد « جانوبولس » أن يُخمد « حازوقة » بسعلة . وتظاهر الأوروبيون بأنهم لم يحلظوا ذلك .

« يا لهذه البلاد ! » قالت زوجة راعي أبرشيةٍ أميركي بلهجة حادة .

« هي بالتأكيد ليست (نيويورك سيتي) ! » قال رفيقها الثقيل ببلاهة .

تظاهر بقية البيض بعدم الفهم . فضحك الاثنان معاً كأنهما وحيدين .

« لا أخلاق أبداً في هذه البلاد » قالت زوجة الطبيب بتأوه ، محاولة أن تبدو كمن أصابه اليأس .

« ولا في باريس » رد عليها مدير المدرسة .

سرت هذه الاشارة كالتيار الكهربائي في أجساد الأوروبيين . انتفضوا واحداً بعد الآخر . واحمّرت كالدم أذنا الطبيب . والوحيدة التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم تظهر تأثراً كانت « السيدة » . وأما السيدات الأميركيات فكنّ منشغلات فيما بينهن بالهمس في أنهن لم يسمعْن . وأما الرجل الذي يعقم دانغان فكان يتنفس بغيظ . توجّه بحدة إلى الطبيب ودمدم .

« ماذا . . ماذا تعني . . ماذا تعني بذلك ؟ »

كشّر مدير المدرسة مظهراً له الازدراء وهزّ كتفيه . فنهض الرجل الآخر ومشى نحوه .

راقبه مدير المدرسة بلا اهتمام . هل سيقفز ويُمسك بخناقه ؟ كانت لحظة متوترة .

« أنت مربّي رعاع صغير حقير » قال بغلظة .

« رجاءً ، رجاءً يا سيد فيرناند » قال القومندان وهو يتقدم بينهما .

عاد السيد فيرناند إلى مقعده وتهيأ للجلوس . وما ان مسّ قفاه الكنبة حتى تهالك وكأنما لدغهُ عقرب . ساط الهواء مرة أو مرتين بذراعه . ثم فتح فمه ولعق شفتيه .

« أنت خائن يا سيد سالفين» قال « خائن . . منذ قدمت هذه البلاد وأنت تتصرف بطريقة لا تليق بفرنسي . أنت تثير المواطنين الأصليين ضدنا . تثابر على القول لهم بأنهم مثلنا أناس طيبون ـ وكأنهم لم يقيّموا أنفسهم عالياً حتى الآن . . » .

جلس السيد فرناند . وأومأ « غاليت » برأسه موافقاً ، وتبعت هذه الاشارة القائدة رؤ وسٌ أخرى . وظل رأس « السيدة » ساكناً .

« مسكينة فرنسا » قال غاليت مع زفرة هواء .

انتفض مدير المدرسة ونظرت «السيدة»الى السقف . وتمتمت زوجة الطبيب شيئاً في أذن زوجها . عقدت يديها وتصنعت ابتسامة . ثم توجهتْ إلى السيدة بصوت غريب .

« عـزيزتي . هـل ذهبتِ لمشاهـدة الباليـه الياباني في مسرح مارينـي ؟ » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« لم أجد الوقت . كنت مشغولة أتنقّل من مكتب إلى مكتب لأصل مفاجئةً للقومندان في عيد ميلاده » .

وجهتْ « السيدة » نظرة مغرمة الى زوجها الذي تحسس بشغف ذراعها .

عاودت زوجة الطبيب الهجوم . ذكرتْ إسم احدى الصحف التي كالت المديح للباليه الياباني . وعندما استنفدت قول ما تريد تسلّمت إحدى الآنستين « دوبوا » المبادرة . ذكرت أسماء عدد من رجال بيض افترضتْ أنهم موسيقيون أو لهم علاقة بالموسيقى . وأبدت أسفها لأن الفرصة التي أتيحت « للسيدة » لم تتح لها لتكون في باريس في بداية الأسبوع . وأبدت تفجّعها على ساحات التنس التي أوحلت مع أولى الأمْطار ، وأنها لا تجد لاعباً حقيقياً في دانغان . وتحدثت السيدة سالفين عن الخيول وكيف أن ذبابة « التسي‌تسي »[٢٢] في‌منطقة الغابة ، جعلت من المستحيل على الأفارقة الاعتناء بها . وقال المهندس شيئاً يمكن ، ربما ، عمله . . بحث السيد جانوبولس أسعار « الكاكاو » مع القومندان . وأبدى الطبيب رغبته في الحصول على قابلة أوروبية . وتحدّث مدير المدرسة بمعرفة وثقة ، فحاول تقديم تفسير للسلوك الافريقي . لكن كل واحد من الحضور روى قصة قصيرة لدحضه واثبات أن الافريقي هو إما طفل أو أبله . .

وتأسفوا لغياب الأب فاندرماير ، الرجل القديس ، الذي كرس حياته لخدمة متوحشين ناكرين للجميل . وتفجعوا على « الشهيد » كما يشيرون للأب غيلبرت لأنه مات على الأرض الافريقية . ووعدت زوجة الطبيب ، بصوت دامع ، « السيدة » أن ترافقها لتضع الزهور على قبره .

انشغل الأميركيون عن الآخرين . وهم ، الآن ، يتحدثون بلغتهم الخاصة .

---

(٢٢) تسي تسي : ذبابة تسبب مرض النوم - المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وما أن تفرغ كأس حتى أهرع لملئها وأعود رأساً إلى مكاني بين دفة الباب والثلاجة . كان ظهر المهندس اليّ بينما « السيدة » والقومندان مواجهين لي . لم تكن « السيدة » تشرب كحولاً . وزوجات اليونان كن يتحدثن بهدوء مع أزواجهن ، وكدموع الكلاب ، كان ضحكهن يأتي نادراً .

وعاد الحديث ثانية عن المحليين :

« يا لفرنسا المسكينة » قال غاليت ثانية « المحليون ، الآن ، وزراء في باريس ! » .

إلا مَ تؤول الجمهورية ؟ سؤال وجد كل الأوروبيين الحاضرين سبباً له .

وأول من نطق به كان السيد فيرناند .

« إلا مَ يؤول العالم » ردّد غاليت .

بعد ذلك تحدثوا عن الحاجة الى انقلاب عسكريّ لتجديد فرنسا . جرى حديثهم عن ملوكهم ومن بينهم واحداً اسمه « نابليون » .. ودهش الجميع حين قالت « السيدة » أن زوج الأمّ لإمبراطورة يسمونها « جوزفين » كان زنجياً .

وهكذا عادوا ثانية إلى المحليين . . « الخطر الأصفر » لم يزل بعد ، وها هو « الخطر الأسود » يطل برأسه . . ما الذي سيحل بالحضارة ؟ . .

خشخشت قطرات المطر الأولى على سقف المقر الصاجيّ المُموَّج . وكان الطبيب وزوجته أول من نهض ، فتبعهم الآخرون . تأرجحوا على أرض المنزل كأنما يسيرون على قشور الموز .

وحين توجه المدعوون لوداع القومندان اكتفى بأن نخر ، وترك « السيدة » ترافق الضيوف الى الشرفة بنفسها . وانطلقت السيارات والسيدة تنتظر حتى اختفى آخر ضوء سيارة أحمر في الظلام .

*

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سرتُ مع « السيدة » الى سوق دانغان فقد أصرت على الذهاب بنفسها والتسوق . كانت ترتدي السروال الأسود الفضفاض الذي يعرض قوامها الجميل ، وعلى رأسها قبعة كبيرة من القش جاءت بها من باريس . وسوق دانغان تبعُدُ مسافةَ دقائق خمس عن « المقر » . وهو ساحة تصطف فيها السقائف في صفين ، في أحدهما دكان قصّاب وفي الآخر مسمكة . وفي الساحة جدول يُستخدم كسلّة قمامة وللاستحمام أحياناً . .

هذا هو أكثر الأماكن حيوية في دانغان وخاصة صباحات السبت . وهو ملتقى المحليين من « الموقع » أو القرى .

سرنا على الأقدام وقد حملتُ سلة السيدة . سارتْ مسرعة تتقدمني بخفة غزال ورشاقته . والأفارقة يرفعون قبعاتهم قبل أن نصلهم بعشرات الخطوات ، ويسألونني بلغتنا ، دون أن تحسّ السيدة ، إن كانت « هي » وأومأت برأسي ايجاباً .

« انني سعيد لرؤ يتها قبل التوجه للاعتراف » قال أحدهم .

«لو كانت هي التي مسحت قدم « سيدنا المسيح » بالمرهم لتغيرت قصة التوراة كثيراً » . قال آخر .

« مختلفة جداً ! » قال ثالث .

وتبعَنا الملقّنون بعيونهم . ومرّ صبي مسرعاً على دراجته ، وصاح : « الآن ، هنا امرأة » ـ صاح ـ « امرأة بين النساء » .

تطايرت التعليقات من كل الجهات . الرجال يحيّون ويتجمدون على وضع التحية .

« انظر كيف يتحرك هذان الردفان ! » قال واحد « يا لهذا القوام وهذا الشّعر » .

« ما الذي لا أستطيع فعله مع ما في هذا السروال ؟ » قال آخر بتوق شديد .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« يا رجل ، لا بد أن بنطلونك قد ابتل » صاح بي رجل ثالث .

« يا للعار ، كل هذا للرجل غير المختون ! » قال آخر وقد تجهّم ليعرب عن غيظه .

أبدت النساء اعجابهن بصمت . مررن بأيديهن على شفاههن . وقالت واحدة أنها تعتقد أن ردفي السيدة غاية في النعومة .

طلع السيد « جانوبولس » من مكان ما وعرض على « السيدة » ان يقلها بسيارته الأميركية القوية . فردّت بأنها تحب اكتشاف دانغان على الأقدام . وجه اليوناني اليّ نظرة من فوق كتف « السيدة » ، فاحمر وجهها ، وزمجرت سيارته مبتعدة .

وفي السوق انفرج الحشد أمامنا طواعية . ابتاعت السيدة بعض الأناناس والبرتقال وقليلاً من الموز ، وتوجهت إلى المسمكة . كان أحد الأفارقة يقضي حاجته على حافة الجدول ، ولم يظهر الخجل على السيدة .

في العاشرة سرنا إلى « المقر » .

وفجأة ، سألتني : « يا ولد ، ما كان يقول هؤلاء الناس ؟ » .

« لا شيء . . » قلت وقد ظهر عليّ الاضطراب .

« ماذا تعني بلا شيء ؟ » قالت وقد استدارت اليّ «كل تلك البربرة لا بد أن تعني شيئاً » .

« يرونكِ . . رائعة الجمال » قلت وقد انقطع نفسي .

لن أنسى نظرتها بعد أن تفوهتُ بتلك الكلمات . صرّت عينيها وكسى وجهها تعبير يعزّ على الوصف ، واحمرتْ بالخجل بعد ذلك . أحسست بحرارة لاذعة من ظهر عنقي حتى أخمص قدمي . ابتسمت السيدة وكان ذلك أفضل ما تفعله في تلك اللحظة .

« ذلك لطف منهم » قالت « لكن لِمَ كل هذه السرّية ؟ لِمَ تظهرون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل هذا الغباء ؟ »

ولم تقل شيئاً طوال بقية الطريق إلى البيت .

*

كانت السيدة تتأرجح على أرجوحتها المشبكة وبيدها كتاب وقد أحضرت لها شراباً حين سألتني :

« يا صبي ، لم لا تحب العمل في « المقر » ؟ »

وقفت فاغراً فمي ، محبطاً .

« تبدو وكأنك تجده عملاً شاقاً ، آه . . نحن بالطبع راضون عنك . . فلا أخطاء . . وأنت دقيق وعامل ذو ضمير . ولكنك تفتقد مرح العمال الأفارقة . . تعطي انطباعاً بأنك تقوم بعمل خادم البيت بينما تنتظر شيئاً آخر ليأتي بسرعة » .

تحدثت السيدة دون توقف وهي تنظر أمامها ، ثم توجّهتْ اليّ :

« ماذا يعمل والدك ؟ »

« انه متوفي » .

« آسفة . . »

« هذا لطف كبير من سيدتي »

عاودت الحديث بعد توقف قصير .

« ماذا كان يعمل وهو حي ؟ »

« كان ينصب فخاخاً للأنياص » .

« كم هو ممتع » . ضحكت « وهل تستطيع أن تنصب فخاخاً لأنياص ؟ »

« نعم ، سيدتي » .

تأرجحتْ ونفضتْ سيجارتها التي كانت تتدخنها باستمتاع. نفثت الدخان من فمها وأنفها في الفراغ الذي يفصلنا . التقطتْ وريقة عن شفتيها ونفخت عليها باتجاهي .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« أنت ترى » استمرت في الحديث « لقد تقدمتَ حتى أصبحتَ خادم بيت القومندان » .

ابتسمت لي إبتسامةً قوستْ شفتها العليا والمتعتْ عيناها فبدتا كأنما تحاولان استكشاف وجهي . وختمت الحديث بعد أن أفرغت كأسها .

« أمتزوج أنت ؟ »

« كلا يا سيدتي »

« رغم أنك تكسب ما يكفي لشراء زوجة . يقول « روبرت » بأنك ، كخادم في بيت القومندان ، يجب أن تكون مثالاً حسناً . . يجب أن تبدأ ببناء عائلة » .

ابتسمَتْ .

« عائلة ، عائلة كبيرة . ها ؟ »

« ربما ، سيدتي ، لكن زوجتي وأطفالي لن يأكلوا ويلبسوا مثل سيدتي أو مثل الأطفال البيض . . » .

« آه . يا عزيزي »ضحكتْ « لديك أفكار كبيرة » .

قالت بعد لحظة « يجب أن تكون جَادّاً . لكلٍّ موقعه في الحياة . أنت خادم وزوجي قومندان . . لا يمكن فعل شيء تجاه ذلك . أنت مسيحي ، ألستَ كذلك ؟ »

« نعم سيدتي ، الى حدّ ما » .

« ماذا تقصد الى حدّ ما ؟ »

« لستُ مسيحياً حقاً ، سيدتي . مسيحي لأن القسيس صب الماء على رأسي ومنحني اسماً أوروبياً » .

« لا أكاد أصدق ما تقول . أخبَرنَي القومندان بأنك مؤمن متمسك »

«يجب علينا أن نصدق حكايات الرجل الأبيض ـ كثيراً أو قليلاً » .

« هكذا اذن ، هكذا ؟ »

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أوقف حديثي انفاسها .

« ولكن ،» تـابعت « ألا تؤمن بالله أبـداً ؟ هـل عـدت إلى وثنيتك ؟ »

« النهر لا يعود إلى منبعه . . أظن أن في بلد سيدتي أيضاً مثلاً كهذا » .

« نعم . . فعلاً . ما تقوله يثير الاهتمام » قالت بسرور « والآن جهّز الحمام . كم أصبح الجو حاراً ! » .

*

لمْ نتأخر في اجتماع في « الموقع » كما تأخرنا ليلة أمس . تجمع كل الأفارقة حول النار في الكوخ الذي نستخدمه للنقاش .

عندما دخلتُ كانت مجموعة صغيرة من الشيوخ تصغـي لمـا يقوله « علي » . علي من قبيلة « الهاوسا » ، هو التاجر المتجول الوحيد من « الموقع » . ذقنه البيضاء كذقن الماعز . وهو حكيم فأعطي مكاناً بين شيوخ دانغان . قاطعه « مكونغو » المحارب القديم .

« أقول لك أنك تضيع وقتك بشأن زوجة القومندان » . لم تنم في حياتك مع امرأة بيضاء لذلك فأنت تضيع وقتك . لقد حاربتُ في بلاد الرجل الأبيض . تركت هناك رِجلاً ، ولا آسف على ذلك . فلقد عرفت كثيراً من النساء البيض ويمكنني القول أن زوجة القومندان هي امرأة بيضاء بين النساء البيض » .

. . شاركتَ في الحرب ، « قال أحدهم »« نمتَ مع النساء البيض . أخبرنا ان كنّ أفضل من نسائنا . فهذا ليس سؤالاً فارغاً . لِمَ يمنعنا البيض عن نسائهم ؟ »

« ربما لأنهم ليسوا مختونين ونحن مختونون » اقترح البعض جواباً .

انفجروا بالضحك . وحين هدأوا جميعاً أجاب « مكونغـو » على سؤال الرجل .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«يا أوبيلا . لك رأس مليئة بالحكمة . سؤالك سؤال رجل حكيم يروم الفهم . قال أجدادانا (الحقيقة خلف الجبال وعليك الارتحال اليها) ولقد ارتحلتْ . قمتُ بالرحلة العظيمة التي تعرفون . نمت مع النساء البيض. وحاربتُ ، فقدتُ رجلاً وأستطيع أن أجيب على سؤالك .

حين غادرتُ هذا البلد كنت رجلاً . فلو كنتُ طفلاً لما استدعاني البيض هناك لذلك . عندما غادرت البلاد خلفتُ امرأة وطفلاً . وطوال الحرب في « ليبيا » لم تخطر النساء لي على بال . وبعد انتصارنا نُقلتْ كتيبتي الى الجزائر . حصلنا على عشرين يوماً اجازة وعلى أجرنا . وأصبحت قادراً على أن أخالف الوصية السادسة[٢٣] . فالموت كان بعيداً . ورفاقي البيض ، البيض حقاً ، قالوا « تعال معنا يا صديقنا ، في المدينة الكثير الكثير من النساء » وسألتهم « نساء سوداوات ؟ » فأجابوا « نساء بيض ، سيدات بيض » . لم أكن أدري ان البيض والسود ينامون معاً . ولكن حين أخبرني أصدقائي البيض أن رجال « السارا[٢٤] لديهم خليلات بيضاوات سرت معهم . أخذوني إلى « مبغى » . بيت كبير مليء بالنساء . لم أر في حياتي شيئاً كهذا . نساء من كل الألوان والأحجام والأعمار . لبعضهن شعر كلحية كوز الذرة ولأخريات شعر أشد سواداً من القطران أو أشد حمرة من صلصال بيوتنا . طلب مني رجل ، له كرش كبير وجيوب تحت عينيه ، أن أختار واحدة من النساء الواقفات في صف أمامي . وأخذت امرأة بيضاء حقاً ، شعرها كلحية كوز الذرة ، عيونها كعيون النمر وأردافها كالملتينة ملصوقة على حائط » .

« آه ، امرأة بيضاء أصيلة » قال أحدهم مؤيداً .

وهزّ الجميع رؤوسهم موافقين . وسرت همهمة الموافقة بين

(٢٣) الوصية السادسة من الوصايا العشر ـ المترجم .

(٢٤) سارا : قبيلة ، احدى القبائل الافريقية ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المجتمعين .

تابع مكونغو :

« أقبلت المرأة التي وقع عليها اختياري ووضعت يدها تحت ذقني . دخلنا غرفة لم أر مثلها في حياتي . مرايا في كل مكان ، فغطّتْ صُورنا الجدرانَ والسقف . كان هناك سرير كبير صُنع على طريقة الرجل الأبيض ، وخلفه ستارة وراءها كل ما يلزم للاغتسال . كانت المرأة التي وقع عليها اختياري تلبس رداء طويلاً بأزرار كثيرة على طول مقدمته . كانت طويلة بمثل طولي وبيضاء كطير « الكركزان » . شعرها بلون لحية كوز الذرة يتهدل على كتفيها . اقتربتُ حتى لامستني وضحكت قائلة « يا فرخي الصغير » .

وكأن قلبي قد توقف عن النبض . وقفتُ ، فتراجعتْ مذعورة . سألتُها لماذا أهانتني . فأخذت تضحك وتتثنّى . كدت أضربها ، ولكنني خشيت أن يقذفوا بي إلى الخارج . وبعدما هدأنا قالت أنها ما أهانتني وأن النساء البيض يطلقن على الرجال الذين يرافقونهن أسماء وأسماء . وأرتني رسالة كانت سترسلها الى فرخ ، ملازم ـ وقرأتُ ، بكل تأكيد « الى فرخي المعبود » أو عبارة كهذه . فأدركت أنها تقول الصدق .

« وما حدث بعد ذلك هو . . لكنني أطلب إخراج الأطفال أولاً » .

أُخرج الأطفال وهم يتذمرون .

« اظنهم قد خرجوا جميعاً « قال مكونغو » اقتربوا فلا أريد أن أرفع صوتي . سأتحدث عن أشياء لم تُحك من قبل . . » .

والتف الرجال حول مكونغو .

« كم كنتَ محظوظاً بالذهاب إلى الحرب » قال أحدهم .

وانصرفْتُ .

*

مضى على سيدي في جولته اسبوعان حتى هذه اللحظة . كانت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيدتي بعد ظهر هذا اليوم عصبية المزاج . سألتني أكثر من مرة ان كان أحد قد سأل عنها . واستدعت الحارس وسألته نفس السؤال . أتساءل من عساها تنتظر . . سيدتي .

بعد ذلك ظلت سيدتي تروح وتجيء على الشرفة .

سيدتي تشعر بالملل .

*

الغسال الذي أحضرتُه لسيدتي ولد ذكي . أصغر مني ولا يتكلم الفرنسية جيداً . كان يعمل في المستشفى . أخبرني أنه عمل في كل الأشغال هناك . كان يساعد العمال ، أحياناً ، في ازالة الأعشاب من الفناء أو يفرغ سلال القمامة من الشاش المستعمل . وكان ، أيضاً ، يساعد الممرضين في امساك اقدام المرضى الذين يرفضون المعالجة في المستشفى أو الذين جرى نقلهم بالقوة في سيارات الاسعاف .

سألته عن رأيه في سيدتي . فأجاب

« مثل كل السيدات البيض هنا »

« لكنها الأجمل » قلت له .

« أتعرف » قال وهو يهز كتفيه « لا أدري كيف تحكم على سيدة بيضاء بأنها جميلة أو غير ذلك » .

إنه ولد عجيب . . اسمه « باكلو » .

أتساءل ، من كانت سيدتي تنتظر يوم أمس .

*

جاء مدير السجن ليتحدث إلى سيدتي . أتراه هو الذي انتظرته ذلك اليوم .

*

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان هو ، السيد « مورو » ، الذي انتظرته سيدتي ذلك اليوم . لِمَ لمْ يخطر ذلك ببالي ؟

السيد « مورو » هو الرجل الحقيقي بين جميع البيض في دانغان . يسميه الأفارقة « الفيل الابيض » . انه من نوع ذلك الرجل الذي لا تستطيع إلا أن تتذكره اذا رأيته مرة . هذه الأكتاف العريضة تلتصق بالذاكرة . ويحترمه كل من في دانغان حتى القومندان .

استغرب لماذا لم يحضر مع الآخرين لاستقبال سيدتي . هل انتظر « الأسد » حتى غاب الراعي ليأتي ويفترس نعجته .

جاءني الحارس هذا الصباح على رؤ وس أصابعه واصبعه الغليظة على شفتيه . وكانت سيدتي لا تزال نائمة . أراح ذراعيه على كتفي وأحسست بشفتيه المبللتين على أذني . لم يكن لدي فكرة عن سبب هذه السرّية .

« الحقيقة هي . . » قال بصوت هامس « هل أستطيع أن أنكر أنني شاهدت مدير السجن يغادر (السيدة) عند منتصف الليل ؟ » .

أمسك الحارس بذراعي وقادني إلى آخر الشرفة .

« الأشياء كما هي » استمر بغموض « ولا بد أن هنالك أحداً ما ملومٌ على ذلك ، والأمور تسير كما يجب أن تسير . فاذا تحدثت عنها فلأن لي فماً . واذا رأيتها فلأن لي عينان . والعين تذهب أبعد من الفم وأسرع ، ولا شيء يوقفها . . »

وبعد لحظة صمت قال « ولذلك أنا أتحدث » .

مرر يده الكبيرة على شفتيه .

« أنا أتحدث وأقول أن النمر يحوم حول النعجة . ليس أنا الذي رأى . انها هي (وأشار بسبابته الى عينيه) التي رأت » .

راقبني الحارس كأنه يتوقع شيئاً .

« أنت محظوظ اذ تعرق في هذا الجو البارد » قال « أرى أنه ما زال فيك دم الشباب » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رفعتُ يدي الى أنفي بلا تفكير ، فوجدته مبللاً بالعرق . جلست على الدرج وأحسست بأنني أمتلىء بخدَرٍ غريب . وبدا وكأن رجليّ قد اختفتا .

« لو أخبرتني بدلاً من أن تشرب وحدك » قال الحارس وقد هبط بثقل بالقرب مني « وأعطيتني شيئاً أدفىء به جوفي » .

تثاءب .

« هل سمعتهم يتحدثون طوال الليل ؟ » وجدت نفسي أسأله .

« من ؟ » قال الحارس متحيِّراً .

« ماذا تعني (من ؟) » قلت بغضب « السيدة و . . . . . » .

« عا ا ا ا ل ! » صرخ الحارس « تبدأ الأمور ، هكذا ، بأسئلة لا نهاية لها . أنا لا أفهمكم يا شباب اليوم . أيام الألمان ، لم نكن نهتم بشؤون البيض . لا أفهم . . لا أفهم لم تسألني سؤ الاً كهذا . . » . تنهد ومضى يقول :

« لم أقل لك أنني سمعتهم . . قلت أن ما قالاه ولج أذنيَ . لم أفعل شيئاً . . »

« صباح الخير ، أيها الأصدقاء . هل نمتما جيداً ؟ »

كان هذا « باكلو » الذي وصل للتو . وجد مكاناً وجلس بيني وبين الحارس . وتمتم الحارس شيئاً ما .

« تبدوان مكتئبين . أنتما الاثنان » . قال باكلو

نظر الينا واحداً بعد الآخر . همّ الشرطي بالوقوف فأمسكه باكلو من قفا بنطلونه القصير فسقط على قفاه واستسلم .

« انها غلطتي » قال الحارس برجفة خفيفة في صوته « ففمي دائماً ينفلت . . » .

ضم شفتيه .

« كنت هناك . وبدون إرادة رأيت وسمعت » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« تتكلّم وكأن عقرباً معلقاً بخصيتيك » قال باكلو « لا يجب أن تخاف مني ، فأذناي كالقبر . ولن ترفض أن تخبر صديقاً » ترجّاه باكلو « صديقاً وفياً . . » .

« أعرف . أعرف » . قال الحارس وهو يؤ رجح رأسه من جانب إلى جانب .

فرد ذراعيه كقسيس يقول « الربّ مَعَكُمْ » وابتدأ :

« هذا ما أزعجني . أخبرت تاوندي عمّا ولج أذنيّ وما حدث أمام عيني . . الفيل الأبيض الذي تعرفه ، زار حقل القومندان في غيابه . . » .

« وما دخلك بذلك ؟ » سأل باكلو بِحيرة .

«لا دخل لي أبداً. وهذا بالضبط ما كنت أقول لِـ تاوندي».

استدار باكلو إليّ . نظر إليّ نظرة فاحصة لفترة طويلة . ابتعد بعينيه وتجهّم ، حكّ رأسه وسعل .

« تاوندي يا أخي ، يا أخي العزيز ، لو تدري كم تسبب لي من القلق . . ما الذي تسعى اليه ؟ منذ متى تحتكّ القدر بالمطرقة ؟ ما الذي تريده ؟ » .

« ها أنت تتحدث كالكبار العقلاء » قال الحارس مؤيداً ، بصوت مرتفع . « إنه لأمر مفرحٌ أن تعرف أن الشباب ليسوا جميعاً مغفلين . . » .

أعلن البوق في معسكر الشرطة الساعة الثامنة .

« الى العمل » قال باكلو وهو يقف . . « نحن هنا لنعمل ، فقط لنعمل » .

« ومع ذلك أحسُّ بالغثيان حين أفكر أن « السيدة » تفعل ذلك للقومندان » قال الحارس « وهي قد قدمت من فرنسا قبل فترة قصيرة » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« حاول أن تبقي فمك الكبير مغلقاً » قال له باكلو :

« لقد اتفقنا على أن هذا ليس من شأننا . ومع ذلك تستمر في الحديث عنه » .

« يا إبني » قال الحارس « تعلم أن لا شيء أسوأ من الأفكار . الأمر ليس في يدي . . أريد أن أعرف ، فقط ، أحدث الأمر أم لم يحدث بعد . . أنت المسؤول عن الغسيل وتستطيع أن تلقي نظرة على الشراشف » .

« هذه فكرة لم تطرأ على بالي » قال باكلو « أنت سلحفاة عجوز » .

ضحكا وتغامزا . وذهبتُ لأعد حمام السيدة .

كان «باكلو» ينتظر خارج غرفة الغسيل. وحتى الساعة التاسعة لم تستيقظ السيدة . جاء الحارس ووقف مع باكلو . وسمعتُ شذرات من حديثهما . المسألة كانت معرفة هل حدث الأمر أم لم يحدث . واجتاحت رأسي آلاف الأفكار . . كنت أعجب فيما مضى كيف تكون سيدتي ، الأنثى جدّاً ، مكتفية بسيدي . . إن مدير السجن ليس من نوع الرجل الذي يكتفي بالمغازلة ، وهو يعرف ما يريد . وهو ليس الرجل الذي ينتظر التفاحة حتى تسقط عن الشجرة .

بعـــد الظهـــر

انتهى كل شيء . . أيها القومندان المسكين .

كانت السيدة لا تزال نائمة حتى الحادية عشرة . عندها أدركت أن شيئاً ما سار بشكل خاطىء . لم تنادِ على الغسال الا قبيل الثانية عشرة . ومن المطبخ رأيت باكلو يضحك لنفسه ضحكة خافتة وينسل إلى غرفة الغسيل . أشار إلى الحارس فانفجر ضاحكاً ، وأشار لي أن أتبعه . أسرعتُ أصّب تنكة الماء الساخن في الحمام وبعدها لحقت بـ « باكلو » والحارس الى غرفة الغسيل .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زال كل شك . تمَّ الأمر خلال الليل . . يا للقومندان المسكين !

عاد السيد مورو الساعة الرابعة . كانت السيدة مفعمة بالسعادة . تغني وتتقافز في البيت كطفل .

يا للقومندان المسكين .

*

عاد أحد رجال الشرطة ، الذين رافقوا سيدي في جولته الى « المقر » ، في الظهيرة ، يحمل رسالة للسيدة .

نظرتْ بسرعة خلال الرسالة وكتبت شيئاً على ظهرها ووضعتها في مغلف آخر حملتهُ الى مدير السجن .

وعندما رآني السيد مورو نهض عن طاولة الغداء وقابلني في الشرفة . خطف الرسالة من يدي وحين قرأها اعتقدتُ أنه سيعانقني . نفحني علبة سجائر ، وكان هذا ما علي أن أبلغه للسيدة كردٍّ على رسالتها . وقد ظهر عليها السرور لذلك .

هؤلاء البيض حين تستحكم فيهم عاطفة ما ، لا يعود يهمهم أي شيء آخر . سيلزم سيدي بضعة أيام أخرى قبل أن ينتهي من غابة « الشمبانزي الشرير » .

سيدي المسكين . .

*

صرفتْ السيدة جميع العاملين في الساعة السادسة . واستَبْقَتْني لخدمتهم على العشاء . فالسيد والسيدة مورو سيحضرون . وصلوا الساعة السابعة . لبستْ السيدة فستانها الحريري الأسود الضيق . وكان السيد مورو يتألق في بدلة قاتمة أنيقة . وبدتْ السيدة « مورو » غير مثيرة للاهتمام . فثيابها البيضاء لم تبرز صدرها أو أردافها . إني لأعجَبُ كيف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقدر امرأة هشّة كهذه على احتمال عملاق ضخم كمدير السجن !

لقد أدركتُ ، لدى وصولهم ، أن هذه الزيارة ستكون عذاب « السيدة » مورو . وبدا لي أن مجرد دعوتهم هي جرأة وتحدٍّ كبير .

سيدتي والسيد مورو لم يكلفا نفسيهما عناء التظاهر . يداهما طوال الوقت تحت الطاولة . ولم يكن عسيراً ادراك ما كان يجري .

وقفت السيدة مورو ، عند أول سانحة وطلبت مني أن أقودها الى الحمام . سرتُ ، بمصباحي الكهربائي ، أمامها الى الشرفة ، وهي خلفي « تنفنف » وتضع منديلاً على فمها .

تركتها في الحمام وتسللت عائداً . تلصصت من خلال شقّ في نافذة غرفة الاستقبال فرأيت السيد مورور يقبل « السيدة » في فمها . انسحبتُ بخفةٍ ورجعت انتظر السيدة مورو .

تأخرتْ . . مضى نصف ساعة قبل أن تعود إلى غرفة الاستقبال . وهناك ، بَودَرَتْ وجهها وقالت أنها مصابة بصداع حاد واستأذنت زوجها والسيدة . . فأقلّها السيد مورو بسيارته .

وبعد ساعة عاد السيد مورو . .

« جوزيف ، يمكنك أن تنصرف » قالت السيدة بضيق ظاهر .

*

عاد سيدي هذا الصباح . عودته المفاجئة هذه ليست علامة خير . يقول الحارس أنه لا بد قد رأى في الحلم أحداً ينام مع زوجته .

كنت أغسل أدوات المطبخ عندما توقف صوت المحرك ، المألوف لدي ، قرب الكاراج . الساعة الحادية عشرة ، والسيدة التي دأبت على النوم حتى الظهيرة منذ سفر زوجها ، لا زالت غارقة في متعة غرام ليل البارحة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هرعتُ الى الكاراج لأحمل أغراض سيدي .

« آه ، مرحى جوزيف . أليست السيدة في الداخل ؟ »

« بلى سيدي ، انها لا تزال نائمة » .

« وهل هي مريضة ؟ »

« لا أعرف يا سيدي » .

أسرع سيدي الى « المقر » . أرجله القصيرة الغليظة تسرع في سباق . وقد تبعته على رجليّ الطويلتين أحمل حقيبته على رأسي . شعرتُ بالأسف له . فهو يسرع ، مهموماً ، الى زوجة ما عادت تهتم له وحده . أردتُ أن أرى كيف تتصرف السيدة تجاه زوجها العائد بعد أن أقدمت على خداعه . كانت تنتظر القومندان على الشرفة ملتفّة برداء الحمام . ابتسمتْ ابتسامة شاحبة وتقدمت اليه . قبلها سيدي في شفتيها ، فلم تغمض عينيها هذه المرة .

لم أستطع أن أطلب منهما افساح الطريق لأُدخل حقيبة القومندان الى غرفته . . فوقفت خلفهما وطأطأت بصري . رفعتُ عينيّ للحظة قصيرة فالتقتا عيني السيدة . رأيت عينيها تصغران . . ثم تكبران كأنما رأت السيدة شيئاً أدهشها . وبحركة غريزية نظرت إلى قدمي لأطمئن أنني لا أقف قرب ثعبان سام . وسمعتُ سيدي يسأل السيدة ان كان هناك خطأ ما .

« لكنك تبدين مريضة فعلاً . سوزي » .

« أوه ، لا شيء » .

كان ظهر سيدي لا يزال اليّ وعينا السيدة لم تتركاني . حررها السيد من ذراعيه ودخلا .

بقيتُ ، بضع لحظاتٍ ، واقفاً عند أسفل الدرج ، مسمّراً ، بنظرة السيدة ، في تلك البقعة . تفحصت الأرض ، بين سيقان « الكبّاد » ، المكان المُفَضّل للثعبان الصغير الأخضر القاتل . وأحسست بشيء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عصوّي ، ناعم تحت قدميّ ، فقفزت في الهواء وأنا أطلق صرخة رعب . واندفع سيدي الى الشباك .

بعد ذلك انتابني الخجل من نفسي . خجلت لأنني صرخت حين أحسست بقشرة موز تحت أخمص قدمي .

« ما الأمر يا جوزيف ؟ » نادى القومندان .

« لا شيء يا سيدي » .

« تعال هنا ، فأنت لا تعوي بأعلى صوتك بلا سبب . أم ان هذه هي احدى عادات عالمكم ؟ » .

« نعم سيدي » قلت وقد اغتنمت مخرجاً في تلميحه « انها تحية عودتك » .

وتقمصتُ أقصى الابتسامات سذاجة حين قلت ذلك له . فهز القومندان كتفيه وغاب . ودخلت غرفة الاستقبال أطلب مفتاح غرفة النوم كي أفرغ حقيبته .

« ضعها على الطاولة » قالت السيدة « سأفرغها بنفسي » .

كان الغداء كئيباً وقد ران على البيت صمت عدائي . وقفت هادئاً قرب الثلاجة ، ظهر سيدي إليّ ، ورأس السيدة ، ظلّ منحنياً فوق طبق الطعام .

قبل جولة سيدي الأخيرة كانت الوجبات ، دائماً ، بهيجة بحديث السيدة المرح .

أعاد القومندان سؤال السيدة ان كانت مريضة .

« أقول لك أن صحتي جيدة تماماً » أجابت السيدة .

« لا أفهم . . لا أفهم » تمتم القومندان « ربما الحرارة قد أثرت على أعصابك . يجب أن تزوري طبيباً . أ أنتِ واثقة أنك لست مصابة بصداع ؟ » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« نعم ، صداع خفيف » أجابت السيدة بصوت كأنه آت من بعيد .

« يا ولد . أحضر بعض الأسبرين » أمرَ سيدي .

كانت يد السيدة ترتجف وأنا أناولها علبة الأسبرين .

« ستتحسنين » قال القومندان « ولكن عليك زيارة الطبيب غداً » .

telegram:@mbooks90

وبتثاقلٍ ، سار إلى الشرفة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دفتر التمارين الثاني

ينفصل الحي الأوروبي ، في دانغان ، انفصالاً كاملاً عن الحي الافريقي . ولكن ما يجري تحت سقوفه الحديدية المموجة تعرفه أكواخ الطين ، في الحي الافريقي ، حتى آخر تفصيل . فالعيون في « موقع » المحليين تعرّي البيض تماماً بينما هم يتجولون كالعميان لا يعرفون شيئاً .

لم يكن أحد ، أبداً ، يجهل أن زوجة القومندان تخونه مع السيد مورو ، مدير السجن « ورعبنا الأكبر » .

« ما من امرأة صالحه بين هؤلاء النساء البيض » قال لي خادم السيد مورو في اليوم التالي « حتى زوجة قائد عظيم كالقومندان ترضى بأن (تؤخذ) على مقعد سيارة زوجها في أحد أزقة دانغان . وهذا الأمر لا يهم ، لولا أنهم سيطلقون النار على بعضهم بسببه » .

قال ذلك ، ثم حكى لي بأنه شاهد اثنين من البيض في غينيا الاسبانية يقتل كل منهما الآخر بسبب امرأة ، ليتها كانت بيضاء تماماً ! فحتى نحن لم نكن لنهتم بامرأة مثلها . . كيف يرضى انسان بأن يَقتُل أو يُقتَل من اجل امرأة ؟ أجدادنا كانوا حكماء حين قالوا « المرأة ككوز الذرة هو لكل فم فيه أسنان » .

*

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اليوم زار « السيدة » عاشقها ، للمرة الأولى بحضور زوجها .

السيد مورو في « المقر » . معدتي مضطربة طوال هذا المساء ويجتاحني شعور بالغضب من نفسي . ولا أعرف كيف يمكن أن أتحرر من عاطِفِيْتي الغريبة التي تجعلني أقاسي من أمور لا علاقة لي بها بأي شكل .

يُقدِم هؤلاء الأوروبيون على المغامرات حين تنشغل عواطفهم . فقد كان من الصعب عليّ أن أتوقع قدوم السيد مورو الى « المقر » بينما تعرف دانغان كلها عنه . لكن القومندان لا يشك في زوجته لأنه يبالغ في اقتناعِه بأهميته . فهو يُمضي المساء في حشو معدته كديك حبشيّ وهو غافل عن لمسات الاهتمام المبالغ فيها التي تغدقها عليه السيدة كأي امرأة ذات ضمير غير نظيف . كما لم يلحظ التأدب البارد بين السيدة والضيف الذي هو كتأدب شركاء جريمة يتظاهرون بعدم معرفة بعضهم بعضاً .

ان عدد التعبيرات التي تتوالى على وجه امرأة في وقت كهذا ، هو شيء هام ومثير . فعند السيدة نسقٌ واحد من الابتسامات لعشيقها ، ونماذج مختلفة كثيراً لزوجها . حين تبتسم للسيد مورو لا أرى من عينيها سوى الرموش . ولكنك تستطيع أن ترى ، من العرق على جبينها ، كم تبذل من جهد لتجعل ابتسامتها للقومندان تبدو طبيعية وهي تمسح من عينيها دمعة وهميّة . .

ضحك القومندان ضحكة صغيرة متعالية ، تبعها تعبير ينم عن الانزعاج ، كأنما قد أغاظه أن مدير السجن لم يلحظ مدى كياسته . وبعد لحظات أطلق المدير ضحكة مترددة أثارت بدورها ضحكة قصيرة من السيدة لكنها كانت ضحكة حقيقية هذه المرّة .

أجالتْ السيدة ، بالصدفة ، بصرها باتجاه الثلاجة حيث أقف بانتظار الأوامر .

احمرّ وجهها وحوّلت الحديث ، مباشرة ، الى موضوع « الأفارقة » . فتحدث السيد مورو عن الأفارقة في سجنه . وكان يمكنك أن تستنتج من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طريقة حديثه بأن سجن دانغان هو نوع من فردوس افريقي ، وأن هؤلاء الذين خرجوا ، بأقدامهم أولاً ، انما ماتوا بسبب البهجة المطلقة فيه . .

آه من هؤلاء البيض . .

*

كانت السيدة تنتظرني عند أعلى الدرج ، وحين شاهدتني توقفت عن التمشّي القلِق . وظلت عيناها مسلطتان عليّ وأنا أصعد الدرج .

« مضى نصف ساعة وأنا أنتظر » قالت وهي تكبح غضباً ، « لِمَ تغيب ، هكذا ، في منتصف النهار ؟ أظن أن يومك ينتهي في منتصف الليل . أين كنت ؟ » .

« تحت الشمس يا سيدتي » قلت وأنا أبدي أسخف ابتساماتي ، مما زاد الأمر سوءاً .

« هل تهزأ بي؟ ! » .

« لا . . لا يا سيدتي » قلت وأنا أتصنع التأتأة .

« تظن نفسك ذكياً » . قالت السيدة بابتسامة احتقار « صرت تظن أنك تستطيع فعل ما تشاء . لقد لاحظ الجميع ذلك . حتى الضيوف ! » .

دفعت يديها في جيوب ثوبها الحريري وتقلصت عيناها ، وتقدمت مني . فهبَّ من خلفها نسيمٌ خفيف صلى جسدي برائحة عطر وعرق نسائيّ . نظرتْ إليّ نظرة مضطربة ثم مسحت وجهها وتكلمت بهدوء .

« ستُفصل من عملك عند أول بادرة ازعاج منذ الآن . يمكنك الانصراف » .

انسللتُ إلى المطبخ فقد حان وقت غسيل أدواته . ومن هناك راقبت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السيدة تلبس قبعة « توبي »[1] وتخرج الى الفناء تتفقد غسيل « باكلو » المنشور .

« يا غسال . . يا غسال » نادت السيدة ، ولم يرد أحد . فقفزت الى غرفة الغسيل كنمر جريح . كنت أعلم أن « باكلو » قد راح لينام هناك ريثما يجف الغسيل . وتستطيع أن تسمع شخيره من هنا إذا أصغيت .

وارتفع من غرفة الغسيل صوت غاضب .

«باكلو في مأزق » قال الطاهي .

« مخلوق كسول ! متسكع كسول ! » زعقت السيدة « أين تظن نفسك ، أين تظنون أنفسكم ؟ جلالته يأخذ راحته . . أخرج ! » .

خرج باكلو الى الفناء يترنح نصف مستيقظ والسيدة في أثره . ترددت السيدة لحظة في مطاردة هذا الهيكل الضخم الهزيل الذي يرتعش في بدلة البواب المهترئة . ووقف باكلو يفرك عينيه وكبح تثاؤبه ، فقد أيقظته صرخات السيدة وجعلته يتحقق تدريجياً من حضورها . بعد ذلك تحقق تماماً من أن زوجة القومندان في أعقابه ، فراح يتحرك بحذر . وصلا ، معاً ، الى حبل الغسيل المنشور .

« هل تقول أن هذا نظيف ؟ » صرخت السيدة وهي تقبض على زوج من ملابس القومندان الداخلية وقذفته الى رأس باكلو « أيها المتسكع ! » .

وتطايرت سراويل القومندان الكاكية القصيرة وشلحات السيدة وسراويلها الداخلية والشراشف ، كلها تطايرت الى رأس باكلو وهو يرسل اعتذاراته بصوت حزين . والسيدة قد مطت شفتها السفلى واكتسى وجهها بتعبير غريب وراحت تقلده وهي تهز رأسها من جانب إلى جانب :

« لن تخرج من الغسيل كأنها جديدة . . لن تخرج من الغسيل كأنها جديدة . . »

---

(١) التوبي : قبعة فلينية صغيرة ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان باكلو يلتقط الغسيل من حوله والسيدة مستمرة في صراخها لا تسمع ما يقول . . لم أرها من قبل هكذا . .

« ماذا ينتظر الانسان من أي منكم ! » قالت السيدة « وحين أخبرني الناس الذين يعرفون ما يقولون ، لم أصدقهم ! . . حسناً ، لا بد من اجراء تغيير . . » . وتابعت السيدة « مدير السجن يقول أن ما يلزمني هو عصاً غليظة ، وهو يعرف ما يقول ، حسناً ، هذا ما ستنالون . . هذا ما ستنالون . وسنرى من سيكسب في النهاية » .

نظرت السيدة الى المطبخ فرأتنا في نافذته ، وبذا جاء دورنا . .

أجرت تفتيشاً اكتشفت فيه وعاء خمر مكسوراً ، فحددت له سعراً خصمته من أجرة الطاهي وأجرتي . وقد بلغ ذلك نصف ما نكسبه في الشهر .

« وهذه هي مجرد بداية » قالت السيدة « مجرد بداية » .

واستمرت في حديثها وهي واقفة في باب المطبخ فترة . . نعتت الطاهي بقرد « البابون » الهرم وعبست . وبعد أن عجزت عن قول شيء آخر ركضت عائدة إلى « المقر » وصفقت باب غرفة الاستقبال . . وبعد مضي وقت سمعنا صوت العربةتخرج من الكاراج.وأسرع الحارس بالانضمام الينا ، لوّح ذراعيه الضخمتين وانثنى في ضحكة مدوية . عاد واسترق نظرة سريعة إلى « المقر » ليمطئن .

« رحلتْ » قال الحارس « اليوم هو الخميس » . وابتسم ابتسام العارف .

« لم أفكر بذلك » قال باكلو « إنها جاهزة لذلك ، يا للمدير المحظوظ . السيدة جاهزة تماماً » .

« هل نظرتَ تحت إبطيها ؟ » أضاف الحارس « كان ينزل كالمطر . انها جاهزة لذلك ، بالتأكيد ! » .

كان الطاهي منحنياً ينظف الفاصولياء .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مسح وجهه بيده ، قال « لن أدخر ما يكفي لشراء زوجة ، لم يبق ما يكفي لشراء سجائر . . فظاعة ، أن تكون تحت رحمة كلبة كهذه » . قال الحارس بحزن . وصمتنا . . . ووجدتُ نفسي أردّد « فظاعة . . . » .

خرج سيدي هذا الصباح ثانية إلى الأدغال ، فهو لا يعرف الكلل . ولكنني أحسُّ بالخوف . فرحيله يثير قلقي بينما أحصل على شيء من الأمان بوجوده .

ماذا تدبر السيدة سِرّاً ؟ إنها لا تعلن . انها ، حتى ، لا تنادي عليَّ وتكتفي بالاشارة . فلقد أشارت اليّ هذا الصباح وأعطتني رسالة طلبت أن أسلمها لعاشقها مباشرة بعد أن يرحل زوجها .

كان مدير السجن منشغلاً باثنين من الأفارقة ، متَّهَمينْ بالسرقة من السيد « جانوبولس » ، « يعلمهما السلوك الحسن » . كان يجلدهما ، أمام السيد « جانوبولس » ، يعاونه في ذلك واحد من رجال الشرطة . وقد نُزِعت ثياب الافريقيينْ حتى الخصر ، وأطبقت على يديهما القيود . وامتد الحبل الذي التف حول عنقيهما إلى « عمود ساحة الجلد » ورُبط اليه ، كي يعجزات عن الالتفات وتوقّع الجلدات .

كان الأمر مخيفاً . لقد مزّق السوط المصنوع من جلد فرس النهر لحمهما . يتأوهان فتنفذ تأوهاتهما ، في كل مرة ، إلى أحشائي . والسيد مورو ، وقد شمّر عن ذراعيه وهبط شعره على وجهه ، يهجم ويضرب بعنف جعلني أتساءل ، والألم يعتصر رأسي ، ان كانا سيخرجان ، بعد ذلك ، وفيهما حياة .

وبينما كان السيد « جانوبولس » يلوك سيجارهً أطلق كلبه الذي مس بفمه كعبيهما وعضّ على سروالهما وشدهما بعنف .

« اعترفا يا لصّان ! » صاح السيد مورو « نجانغولا ! اضرب بكعب بندقيتك » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هرع رجل « السارا » الضخم وأحضر سلاحه . وضرب رأسيهما بعقب البندقية .

«ليس على الرأس يا نجانغولا فرؤ وسهم قاسية . اضرب على الكلى » .

وضرب « نجانغولا » على الكلى فانطرحا أرضاً . نهضا ، فأطاحت بهما من جديد ضربة أخرى على الكلى .

وكان جانوبولس يضحك ، والسيد مورو يلهث والسجينان قد غابا عن الوعي .

السيد مورو محق . لا بد أن لنا رؤ وساً قاسية . فحين هوى « نجانغولا » على رأسيهما بعقب بندقيته اعتقدت أنهما سيتناثران ، ولم أتمالك من الارتجاف . كان ذلك رهيباً . . فكرت في كل القساوسة ورعاة الابرشيات ، بجميع الرجال البيض الذين أتوا لانقاذ أرواحنا وتعليمنا حب الجار . فهل جار الرجل الأبيض من البيض الآخرين فقط ؟ ومن سيصدق « الحشو » الذي يقدم لنا في الكنائس ، بعد أن يرى الأمور تسير كما رأيتها اليوم ؟ . .

ستسير الأمور كعادتها . مشتبَها السيد مورو سيرسلان الى « مقبرة الرجل الأسود » . هناك يقضيان بضعة أيام يموتان خلالها موتاً مؤلماً . ويدفنان بعد ذلك عاريين ، في مقبرة السجن . وسيقول القسيس يوم الأحد : « يا أخوتي الأحبة صلّوا لجميع هؤلاء السجناء الذين قَضَوا دون أن يُنجزوا سلامهم مع الرب » . وسيُقدِّم السيد مورو قبعته « التوبي » المقلوبة للمؤمنين . وسيضع كل واحد منهم فيها أكثر قليلاً مما كان ينوي أن يضع . وتذهب النقود للبيض . فهم دائماً يبتكرون طرقاً جديدة لاسترداد ما يدفعون لنا .

كم نحن بائسون ! . .

لا أستطيع أن أتذكر ما فعلته حين عدت إلى المقر .فقد اجتاحني الاضطراب بسبب ما رأيت . وهناك أشياء من الأفضل أن لا تراها ، فان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حدث ورأيتها مرة فلن تستطيع ، أبداً ، الا أن تعيشها مرات ومرات .

لا أظن أنني سأنسى ما رأيت . لن أنسى صرخة الألم الوحشية التي انطلقت من أعماق المشتبه الأصغر حين أنزل عليه « نجانغولا » عقب بندقيته بقوة جعلت السيد مورو يشتُمُ في سرّه والسيد جانوبولس يسقط سيجاره .

غادر البيض وهم يهزون أكتافهم ويومئون . وفجأة ، استدار السيد مورو وأشار اليّ أن أقترب . قبض على كتفي وتبادل النظر مع جانوبولس . أحسست بكفه ، من خلال « جرزتي » ، حارة رطبة . وعندما غِبنا عن نظر السيد جانوبولس أخلى السيد مورو كتفي وراح يفتش جيوبه . أعطاني سيجارة وأشعل واحدة له .

« ألا تدخن ؟ » قال ، وقدّم لي ولعة .

« ليس خلال النهار » قلت حين لم أجد شيئاً آخر أقوله .

هزّ كتفيه وسحب نفساً طويلاً من سيجارته .

« أخبِر السيدة أنني سأحضر الساعة . . دعني أرى (نظر الى ساعته) . . سأصل الساعة الثالثة . حسناً ؟ » .

« نعم سيدي ، نعم سيدي » .

قبض عليَّ من ظهر رقبتي وجعلني أنظر إلى وجهه . وسقطت السيجارة التي كنت وضعتها على أذني فحاولت أن أنحني لالتقاطها حتى لا أنظر اليه .

وضع قدمه على السيجارة وأحسستُ بأصابعه تضيق على عنقي .

« لا ألاعيب معي ، ها ؟ » قال همساً وقد أجبرني على الوقوف معتدلاً .

« اسمع يا ولد » قال السيد مورو « هؤلاء الزبائن ، في الداخل . . يعرفونني . . أتفهم ؟ » وأشار بابهامه إلى السجن خلف ظهره .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضحك ، بعد ذلك ، ورمى لي بحركة مفاجئة علبة السجائر فاخطأ التقاطها وتطايرت السجائر فوق رأسي .

« التقطها . . هي لك » قال ضاحكاً « إعمل كما أريد ، فتحصل على أشياء . . أنت صديق لي . ألست كذلك ؟ » .

« نعم يا سيدي » سمعت نفسي أقول .

« حسناً ، أتتذكر ما قلت لك ؟ » .

« نعم يا سيدي » .

« ماذا قلت ؟ »

« قلت أنك ستأتي الساعة الثالثة للقاء السيدة . . »

« حسناً . . لا تنسى أن تخبرها . . متى سيعود القومندان ؟ »

« لا أعرف يا سيدي » .

« حسناً . إنصرف » قال ورمى لي ورقة خمس فرنكات واستدار ، ومضى .

عندما عدت إلى « المقر » وجدتُ يدي قد مزقت الورقة .

كانت السيدة تنتظر عودتي متشاغلة بالعناية بالزهور . تقدمت الي . . تجمدت ابتسامتها واحمّر وجهها . حاولت أن تنظر في عيني ولكنها تراجعت ، وضربت بكفها ذبابة وهميّةً على رجلها .

« سيأتي في الثالثة . . وقت القيلولة » قلت وأنا أبتعد .

انفرجت شفتاها وعلا صدرها وهبط كمنفاخ كور ، وشحب لونها . قبضتْ على ذقنها بيدها اليسرى ، كما تقبض على فنجان ، وراحت تمسد ثيابها باليد الأخرى .

قال الطاهي حين وصلت اليه « ستواجه متاعب ، فأنت تكلم السيدة وابتسامة على زاوية فمك . . ألم تسمع كيف قالت (شكراً يا سيد تاوندي) ؟ . . حين يبدي البيض تهذيباً تجاه مواطن أصليّ فذلك يعني إشارة سيئة . . » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وصل السيد مورو قبل الثالثة بوقت . . كانت السيدة تنتظره في أرجوحَتها . لقد غيّر قميص الصباح بقميص فضفاض ملون يشبه « بوبو » الهاوسا[٢] ، لبسه مع بنطلون الصباح الكاكي القصير .

لم يأت طريقه المعتادة التي أبلى نفسه عليها في الليالي المقمرة حين كان القومندان غائباً . لم يأت تلك الطريق التي تشكلت من تحت شباك السيدة . واستغربنا كيف أتى الطريق الرئيسية ، فرؤيته عليها ممكنة من بيت الطبيب المحاذي « للمقر » .

وصل وهو يلوّح سلسلة صغيرة حول أصابعه . وما ان شاهدته السيدة حتى نادت عليَّ تطلب كأسي ويسكي ، فهي تشرب الكحول ، دائماً ، في غياب زوجها . قفزتْ عن الارجوحة وسلمت ذراعها ، العارية حتى الكتف ، للمدير . فالصق شفتيه عليها فترة ليست قصيرة .

كانت الثقة بادية عليه وكذلك الانتظار .

استدارت السيدة بسرعة وهي تقف على أطراف أصابعها ، فضحكا معاً ودخلا غرفة الاستقبال . جلست السيدة على الأريكة وأشارت للمدير فجلس الى جانبها . وجررتُ طاولة صغيرة عليها كأسا ويسكي .

« إنه غلام لطيف ، خادمك » قال السيد مورو وأنا أبتعد .

« إنه السيد تاوندي » قالت السيدة مشدّدة على كل مقطع من المقاطع .

« كم مضى عليه عندكم ؟» سأل السيد مورو .

« شغّله روبير » قالت السيدة « يبدو أنه كان خادم الأب غيلبرت . . وقد امتدحَه خَلَفُ الأب « غيلبرت » . . لكنه مغتر بنفسه ولديه أفكار خاصة عن مدى اهميته . وصار ، مؤخراً ، يتصرف على هواه . لكنه ، الآن ، يعرف حدوده » .

---

(٢) بوبو الهاوسا : البوب الذي يرتديه رجال الهاوسا . وهو رداء ملون واسع يلف الجزء العلوي من الجسم ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رفع السيد مورو نفسه وسحق عقب سيجارته في المنفضة . وقد تكورت عيناه بينما هو يستمع الى حديث السيدة . فتحهما على آخرهما واغمضهما ثم عاد وفتحهما وقوّس حاجبيه . صَلاني بنظرة أحسست بخطرها . وارتجفتْ خصلة شعر مدلاة فوق جبينه وهو يفرك يديه ، ومال على السيدة بينما عيونه مسمرة عليّ .

« تعال هنا » قال مدير السجن مشيراً الي ، وقال للسيدة « أترين ، إنه لا يستطيع أن ينظر الى عيوننا . عيونه مراوغة كعيون قزم . . انه خطير . . المحليّون هم كذلك . . حين لا يستطيعون مواجهة نظراتك فذلك يعني بالتأكيد أن فكرة ما تدور في رؤوسهم المتخشبة . . » .

أمسكني من عنقي وأجبرني على النظر اليه ، فلم أقاوم . دار برأسه الى السيدة « هذا أمر مضحك . سأجد لك خادماً آخر . مكان هذا عندي . . في بيكون[٣] قال مستعملاً كلمة من لغتي .

« روبير متعلق به » قالت السيدة « لكنني لا أدري ماذا يجد فيه . . طلبتُ عدة مرات أن يصرفه . لكنك تعرف عناد « روبير . . » .

هكذا اذن ، فأنا لا زلت في البيت بفضل القومندان . كان لي الحق ، اذن ، أن أخاف حين يسافر .

« لن يفيدَ تصنّعك بأنك تنقل أوعية الصّيني » قالت السيدة رافعة صوتها « افتح زجاجة « بيريه » واتركنا وحدنا ، يا سيد « تاوندي ».

أحضرت زجاجة المياه الغازية .

« سيدتي ، هل تطلبين شيئاً آخر ؟ »

« كلا » أجابت بنفاذ صبر .

انحنيت وخرجتُ بظهري من الغرفة . وعندما أصبحت تحت الشرفة سمعت الباب يغلق والمفتاح يدور في القفل .

وجالتْ أغنيةٌ في رأسي . ووجدت نفسي أغنيها بصوت مرتفع . هذه

(٣) بيكون : سجن ، باللغة المحلية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أغنية ، بالفرنسية ، نُغنّيها حين يكون أحد ما على فراش الموت .

أوصد الباب يا سانت بيير ،
أوصد الباب وعلق مفاتيحك ،
فهو لن يأتي ، لن يموت ،
أوصد الباب يا سانت بيير ،
أوصد الباب وعلق مفاتيحك .

*

حمل باكلو بين إصبعي يده اليسرى « فوطة طمث السيدة » وقد أغلق أنفه بكف يده اليمنى ، وهمّ بدخول المطبخ ، فأوصد الطاهي الباب في وجهه وأخذ يكيل له الشتائم . عاد باكلو الى غرفة الغسيل وهو يرعد بالضحك . رجع ، بعد لحظات وهو يتشمم أصابعه المبللة بالماء وراح يلوح في الهواء كي تجف .

شقّ الطاهي باب المطبخ وصاح « لا تدخل . . لا تدخل هنا » .

« ما الأمر ؟ » تساءل باكلو ضاحكاً صرت متأنّقاً . مجرّد النظر يزعجك . فكيف أنا ؟ أنني أغسلها بيدي . . .

نفض « باكلو » يديه وتابع :

« ماذا تتوقع ؟ لكل انسان عمله . أنت تنشغل بالقدور والمقالي وأنا بحوض الغسيل » .

كان الطاهي يراقبه مرتعباً بينما استمر باكلو :

« ما يدهشني هو أنك لم تتعود على هذه الأشياء » قال للطاهي « لا يمكن أن تكون هذه المرة الأولى التي ترى فيها أشياء كهذه . . » .

مسح الطاهي وجهه بكفه « رؤ ية هذه الأشياء تختلف » قال « فالعين تذهب بعيداً . لكن ماذا سيقول أجدادنا لو رأونا نغسل أشياء كهذه للبيض ؟ » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« هنالك عالمان » قال باكلو « عالمنا ، عالم من الاحترام والغموض والسحر . لكن عالمهم ينشر كل شيء في ضوء النهار حتى الأشياء التي ما خلقت لذلك . . يجب أن نعتاد على ذلك . . نحن الغسالون كالأطباء ، نلمس الأشياء التي تخجل الناس العاديين » .

« ماذا نحن في نظر أولئك البيض ؟ » سأل الطاهي « كل الذين اشتغلتُ لهم كانوا يسلمون أشياء كهذه للغسال وكأنه ليس رجلاً . . نسوةً لا يعرفن الخجل ! . . » .

« تتحدث عن الخجل ! . . » انفجر باكلو « انهم جثث . هل تحسُّ الجثث بالخجل ؟ كيف تتحدث عن الخجل عند نساء يسمحن بتقبيلهن في أفواههن في وضح النهار أمام أيّ كان ؟ نساء يمضين الوقت يمسحن رؤوسهن على خدود أزواجهن أو عشاقهن ، وهو الأغلب ، ويتثاءبن في أي مكان دون اهتمام ؟ نساء لا يصلحن الا للفراش ولا يستطعن غسل ملابسهن الداخلية أو فوطهن . . يقولون أنهن يعملن بجدّ في بلادهم . وأما النسوة اللواتي يأتين الى هنا . . »

كان باكلو مسترسلاً عندما ظهرت السيدة على الشرفة . نظر اليها وَحنَى رأسه انحناءة صغيرة ثم غَمَزنا .

« يا غسال » نادت السيدة « ماذا تفعل عندك ؟ » .

« لا شي ء ، سيدتي ، كنت أتحدث عن صديقتي . . » .

عضت السيدة شفتها لتكبت ضحكة . وبصعوبة استطاعت أن تقول « عد إلى عملك ، ليس هذا وقته . . » .

وأسرع باكلو إلى غرفة الغسيل .

*

أصابتني الدهشة ، اليوم ، وأنا أرى زوجة الطبيب على الدرج خارج « المقر » . كانت الساعة الرابعة والسيدة ما زالت نائمة . ركضت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لاستقبل زوجة الطبيب وآخذ عنها مظلتها . دفعتني جانباً وأشاحت برأسها . صعدتْ آخر درجتين إلى الشرفة وطرقتْ الباب ، فلم تسمع جواباً . استدارتْ وعادتْ إلى حافة الدرج . تردّدت وأدركت ، على مضض ، أنها بحاجة الى عوني . رفعت حاجبيها الاشعثَيْن وتكلمت من خلال أسنانها الذهبية المطبقة .

أسرعتُ الى غرفة السيدة . كان الباب مشرّعاً وهي غافية ، فمها مفتوح وتتدلّى ذراعها إلى جانب السرير . رجلاها متصالبتان ، وعلى خدها ذبابة بدت كأنها « شامة » . كانت ترتدي سروال نوم خفيف وقد فكت أزرار سترتها كاشفة عن نهدين صلبين تحت صدّاريتها .

سعلتُ بصوت عالٍ وطرقتُ الباب طرقة خفيفة . تثاءبتْ وفتحتْ عينيها ثم وثبتْ عن السرير وهي تغطّي بسرعة نهديها .

برَّرتُ وقفتي بأن قلتُ « زوجة الطبيب تنتظر في الشرفة » .

زررتْ سترتها وهي ترمقني بنظرات ازدراء مكبوت .

« ادخلها الى غرف الاستقبال » ، قالت « ألا تكلف نفسك عناء دق الباب ، أبداً ؟! » .

« كان الباب مفتوحاً ، سيدتي » قلتُ « ومع ذلك دققته » .

« هذا يكفي » قالت « اذهب وحضّر عصير الليمون مع ماء (بيرييه) » وصفقتِ الباب ورائي .

عندما عدتُ إلى الشرفة كانت زوجة الطبيب تضع المساحيق على وجهها وتمطّه بأوضاع مختلفة ، وتراقب ذلك في مرآة صغيرة في كفّها . لم يصدر عنها ما يشير إلى أنها أحست بعودتي ، اذ ظلت تمطّ شفتيها الضامرتين ، اقصى ما تستطيع ، فتنبت مع كل حركة من هذه ، كأنما بفعل سحر ، تجعدات تحت عينيها المنطفئتين .

أخفتْ مرآتها وعلبة المساحيق . وعندما أبصرتني كبحت اندفاعة عصبية . وعادت إلى رفع حاجبيها المشعثين وشدت فمها المقفل بابتسامة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عجيبة . انحنيتُ لها وفتحت باب غرفة الاستقبال .

سارتْ الى الغرفة بخيلاء . قدمتُ لها مقعداً ، وفي تلك اللحظة ، أقبلتِ السيدة . لقد وجدت السيدة وقتاً لترتدي فستانها الحريري الرمادي وتسوّي وجهها . قالت وهي تبدي اندهاش المبتهج بأن استقبال زوجة الطبيب هو مبعث سرور كبير . وأما زوجة الطبيب فامتدحت مظهر السيدة الحسن وتظاهرت بالاعجاب بقبعتها الصغيرة الأنيقة . تحدثت السيدتان عن الحرارة والمطر المقبل . وكمعظم سكان المستعمرات العجائز كانت زوجة الطبيب تحبّ المبالغة . سألت عن صحة القومندان وكالت له المديح ، وبدون توقف لالتقاط أنفاسها ، انتقلت للحديث عن السيدة « سالفين » وزوجها ، وبعد ذلك عن كافة الأوروبيين في دانغان . ذكرت شيئاً عن نوبة ملاريا ألمّتْ بزوجها ، وقطعتْ حديثها لحظة لتقول لي « شكراً » سريعة ، كاشارة لأتوقف عن سكب الشراب في كوبها . بينما السيدة تصغي لها ، وتتكلّف ابتسامة صغيرة ، بين حين وآخر ، وقد ركزت رأسها بين إبهام واصبع . رفعت السيدتان الكأسين الى شفتيهما وأعادتاهما في نفس اللحظة تقريباً . ضَمَّتْ زوجة الطبيب يديها معاً ومالت نحو السيدة . رفعتْ ظهرها واسندته الى ظهر الكنبة ، مع ضحكة قصيرة حادة ، ثم عاودت الانحناء الى الأمام . أشعلتْ السيدتان السجائر ، وابتدأت زوجة الطبيب تعيد كل ما قالته منذ البداية . وتطرقتْ إلى الحديث عن ابنتها التي تدرس الطب في باريس وعن الشتاء القادم الذي ستراها فيه .

تنصّتُ الى حديثهما ، أول الأمر ، وأنا أتظاهر ، كعادتي ، بالعمل في الغرفة . وعندما ملّت أذني سماع ذلك رحت أفكر بأشياء أخرى .

كنت قد فقدت كل اهتمام بحديثهما عندما استثارت اهتمامي كلمة انطلقت من فم زوجة الطبيب . لقد التقطت أذناي جزءاً من عبارة همستها زوجة الطبيب في أذن السيدة وهي تميل عليها .

« . . أمس بعد الظهر . . » كانت زوجة الطبيب تقول . ونظرت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السيدتان معاً، اليّ ، واحمر وجه « السيدة » . وبعد قليل تحول اهتمامهما عني .

« أتعرفين » ، قالت زوجة الطبيب ، « يعتقدون أننا لا نفهم لغتهم . أمس ، انتفض أولادي رعباً حين ضبطتهم على الشرفة يشيرون الى السيد مورو الذي كان يمرّ ببيتكم ، وهم يحكون ويضحكون ويصرخون (تاوندي ، تاوندي) . سألتهم عمّا ينظرون اليه فأخبروني بأن . . » .

انحنت زوجة الطبيب أكثر باتجاه « السيدة » . بعد ذلك استدارتا ونظرتا اليّ وخفضت « السيدة » بصرها .

«همُ ، دائماً ، هكذا » قالت زوجة الطبيب « خرقى وحمقى ، تجدينهم في كل مكان الا المكان الذي تريدنهم فيه . . » .

كانت تهمس بذلك في اذن السيدة لكنني استطعت أن التقط الكلمات الأخيرة .

«يجب أن تكوني على حذر . . فلا يزال لديك فرصة ما دام زوجك لا يعلم . . » .

كانت السيدة على وشك أن تدفن رأسها بين يديها ولكنها ضبطت نفسها . أفرغت الكأس ومسحت قطرات عرق عن وجهها . نهضت السيدتان وسارتا الى الشرفة وتبادلتا حديثاً طويلاً . وعندما أعلن بوق معسكر الشرطة الساعة الخامسة والنصف رافقت « السيدة » زوجة الطبيب حتى الطريق .

عادت « السيدة » وطلبت من الطاهي أن يشعل قنديل « عايدة » . واشعال هذا القنديل في المساء ، ساعة تقبل أولى الفراشات ترفُّ في الجوار ، هو اختصاصي . فقد علمني الأب « غيلبرت » كيف أضيء قنديل البترول هذا ، وكنت فخوراً بمهارتي في ذلك . جميع العمال في « المقر » كانوا يتجمدون بالرعب حين يمرون قرب واحد من هذه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القناديل . فكثير من النساء في « الموقع » قد ترمّلن لأن قنديل البترول هذا كثيراً ما كان ينفجر بين أيدي الخدم .

تظاهر الطاهي بأنه لم يسمع . فذهبت السيدة إلى المطبخ ، متظاهرة بأنها لم ترني ، وأمسكت بمريلة الطاهي وأشارت الى القنديل على الشرفة . لوح الطاهي بيديه في تعبير توسل وقال أنه طوال سني عمله مع الأوروبيين لم يشعل قنديل « عايدة » . لكن ذلك لم يثبط عزيمة السيدة . صاحت تنادي باكلو الذي كان في ذلك الوقت ، بالتأكيد ، يختتم شرب البيرة بغفوة في مكان ما من « الموقع » .

وعادت الى الطاهي وأشارت نحو الشرفة ، فتراجع مذعوراً كخروف يتمنّع على الغسيل . كظمت السيدة ثورة الغضب وتوجهت الي . وبدتْ كأنها تستجمع جهدها لتكلمني . ولم أنتظر . . أسرعت الى القنديل أضيئه .

غمر الضوء الشرفة والفناء والمطبخ . وثابرتِ السيدة على المضي جيئة وذهاباً . عبرتْ رقعة الظل بين المطبخ وغرفة الغسيل عدة مرات . واجتاز الطاهي الفناء وعلى رأسه طبق يعلوه البخار .

أسرعتُ وحضّرتُ الطاولة . ودخلتْ السيدة . . . لم ترفع رأسها أو تنطق بكلمة طوال العشاء . وبعد حين ، سمحت لنا بالانصراف .

*

كانت السيدة تكتب رسائل . ترفع رأسها من حين لآخر وتدور عينيها على الثلاجة التي ألّمعها ، دون أن تراني . دفعتِ الطاولة جانباً وتوجهتْ الى مزهرية غرفة الاستقبال والتقطتْ بعض بتلات الهيبسكاس وأسقطتها في المغلف . بلّلتْ حافة المظروف بلسانها الوردي الصغير ، ولصقتْهُ . جمّعت أوراقها ودخلت غرفة النوم .

« يا ولد ، هل الدوش جاهز ؟ » نادت السيدة عليّ من خلف الجدار الفاصل .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« نعم ، سيدتي » أجبت .

حاولتْ أن تصفر ولكن نَفَسها قصَّرَ عن ذلك فتوقفتْ . وأسفرت ضجة تحطُّم زجاجة على الأرض الاسمنتية ، عن صرخة « اللعنة ! » حادّة ، تبعها نداء السيدة عليّ لتنظيف الأرض من البقايا . كانت زجاجة احدى المستحضرات التي تضعها السيدة على وجهها في الليل ، وقد تناثرت قطع الزجاج الى ما تحت السرير . ركعتُ وسبرتُ المكان بمكنستي واستخرجت مع قطع الزجاج كيسين مطاطيين صغيرين . أحسَّتْ السيدة بأن صوت الكنس قد توقف ، فنظرت حولها . وعندما رأتني أقلّبُ الأكياس بمكنستي هجمتْ عليّ ، وحاولتْ أن تدفع الأكياس بقدمها تحت السرير . لكنها داست على أحدها فانبثق منه على أرض الغرفة قليل من سائل ما .

« أُخرجْ» صرخت بعنف « اخرج ، ألا تعرف ما هذه ؟ » وانفلتت في صراخ غاضب ، « ألا تعرف ؟ أكياس مانعة للحمل ! أكياس مانعة للحمل . اذهب وأخبر كل الناس . يا له من موضوع لخدم دانغان يتحدثون فيه . أخرج ! » .

تمر أحيان ، يتركك غضب البيض ، فيها ، مشدوهاً . فما كان يجري لم أكن أفهم منه شيئاً . طردتني السيدة خارجاً فوقفت في الشرفة مذهولاً .

كان الطاهي يراقب من شباك المطبخ . هزّ رأسه بأسى وضرب كفاً بكف ثم وضع راحةيده اليسرى على فمه . تلك كانت عادته في التعبير عن دهشته . وقد أزعجتني اليوم هذه العادة . استدار واختفى ، وبقيت واقفاً هناك مأخوذاً ، قابضاً على مكنستي .

نزلتُ الدرج ودخلتُ المطبخ . كان ظهره اليّ ، وللحظات ، لم يفتح فمه . بعد ذلك قال : « تاوندي ، ألن تتعلم ما هي مهنة الخادم ؟ ستكون في يوم سبباً لمشكل كبير . متى ستفهم أنك ، بالنسبة للبيض ، تعيش لتقوم بأعمالهم ، وليس لأي سبب آخر . أنا طاهي ، والرجل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأبيض لا يراني إلا بمعدته . أنتم يا أولاد اليوم ، لا أعرف ماذا دهاكم . الرجل الأبيض لم يتغير منذ رحيل الألمان وانما تغيرت اللغة . آه يا أولاد اليوم كم تسببون لنا الأسى ! » .

صَمَتْ .

« ماذا كنت تعمل للسيدة هذا الصباح ؟ » .

أعاد سؤاله .

« لا تنظر الي بعيون كهذه » ، قال « فانني بعمر والدك . إنه صوت العقل . . الفأر ، خارج جحْره ، لا يتحدّى القط . . » .

« ما تقوله صحيح » ، قلت « لكن أخبرني . . هذه الأكياس المطاطية الصغيرة . . . عمل الخادم ان لا . . » .

لم أتمكن من إتمام قولي . فوجهه الذي كان قبل لحظة كئيباً قد انشقّ من جانب الى الآخر بضحكة عظيمة مجلجلة . هبط على احدى الحقائب وهو يهتز ويتلوّى بالضحك . . رفع بصره اليّ وعادت تهزّهُ نوبة جديدة من الضحك . وجاء باكلو يركض من غرفة الغسيل .

« ما الأمر ؟ » سأل ، وقد أعد نفسه للضحك « ما القضية ؟ » .

كان الطاهي يقبض على خاصرتيه . رفع ذراعيه نحوي فانتابته نوبة أخرى من الضحك ، فأسقطهما . أشار اليّ ومسح عينيه . كشف باكلو عن أسنانه متهيئاً للضحكة التي كان لهاث الطاهي « إنـ . . إنـ . . إنتظر » يعِدُ بها . وبعد هنيهة هدأ الطاهي . شدّ بساعده وتوجه الى البوفيه مثل غوريللا تسير نحو شجرة . صب في كأس قليلاً من الخمر وتنحنح ثم عاد ليجلس على الصندوق .

« فرصة ضحك كهذه » قال « لا تأتي الا مرة كل عام » .

مسح عينيه ثانية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« لا تكن أنانياً هكذا » قال باكلو وقد نفذ صبره « هل تضع أسعاراً للأخبار ؟ » .

« زوجة ! » قال الطاهي وهو ينفجر بالضحك . وقد عنى بذلك أن السعر عال ولذلك سيطلعه على الخبر بدون مقابل .

« حسناً » ابتدأ الطاهي « تنازع تاوندي والسيدة بسبب الأكياس الصغيرة . . » .

« أكياس صغيرة ؟ » قال باكلو وقد أرخى شفته متظاهراً بالحيرة .

« الأكياس المطاطية الصغيرة ، تعرفها ، التي يستعملها البيض . . » واكمل الطاهي العبارة بأن قبض على أعضاءه الخاصة .

انثنى باكلو الى اثنين وتراجع خطوة خطوة حتى اصطدم قفاه بالبوفيه . وانزلق ببطء الى الأرض وكتفاه تهتزان ، وهو يعوي ككلب . نهض الطاهي وراح يطعن كتف باكلو بقبضته .

« مضى زمن لم أضحك فيه ضحكاً كهذا » قال باكلو وهو ينفض قفا بنطلونه .

« هيا ، أخبرنا بما حدث » قال الطاهي وهو ينخس ضلوعي .

ولم يعطني فرصة لأبدأ بل انفجر ثانية « هؤلاء البيض بهوسهم في تغطية كل شيء بالملابس ، حتى ذلك . . » .

واستسلما للضحك ، معاً ، من جديد .

« ولكن ، ما فائدتها ؟ » قال باكلو ممثلاً دوراً في البراءة .

« ليتم كل شيء بشكل صحيح . . يضعوها كما يضعوا قبعة أو زوجاً من الكفوف . . » قال الطاهي ساخراً من براءتي ، بطريقة مرتجلة تنم عن دراية .

« هذا هو » قال باكلو « انه الشيء الذي يوضع لتلك المناسبة الخاصة » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وضحكا ثانية .

« ياه ، يجب أن أذهب » قال باكلو وهو يبتعد « عندي سلتان من الملابس القذرة . . » نفنف الطاهي ومسح أنفه بظاهر يده .

«لا تهتم يا ولد » قال لي « فالضحك من القلب يظل جيداً حتى ولو على صحوة رجل ميت . لن تحمل لي ضغينة بسبب هذا الضحك العميق الوحشيّ . هل ستفعل ؟ » .

ابتسم وعاد إلى مظهره الجاد .

« أظنك قد أزعجت السيدة » قال لي « فمكنستك قد تعدت الحدود ». أترى ، كأنك قد ضبطت السيد مورو العجوز بنفسه في « المقر » .

«النساء لا يغفرن شيئاً كهذا . فذلك ، لهن ، أسوأ من النظر من تحت فساتينهن . القضية ، أن المرأة البيضاء لا يمكن أن تسمح للخادم بأن يجد أشياء كهذه . . » .

كان يبذل جهداً حتى لا يضحك من جديد ، فحنكه السفلي كان ينتفض ، وحين استدار كنت أرى عنقه يرتعش .

ظهرت « السيدة » على الدرج . فتحت فمها لكن الصوت لم يخرج من حنجرتها . وأخيراً ، نادت عليّ وطلبت أن أحضر لها المكنسة . اختطفَتْها من يدي وغابت . وبعد لحظات سمعتُ صوت خربشة القش على الأرض الاسمنتية .

«يبدو أنها ستكنس غرفة النوم بنفسها » قال الطاهي « أتمنى لو تأتي الى المطبخ أيضاً » .

« انها تكنس غرفة نومها بنفسها » صاح باكلو بلغتنا المحلية « لو أنها تغسل غسيلها ! »

في الحادية عشرة ، وعندما أنهت السيدة ارتداء ثيابها ، وصلت زوجة الطبيب لتقلها بالسيارة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« لن أحضر للغداء » قالت لنا بصوت فيه أثر ارتعاش .

ابتعدت السيارة . وما ان اختفت عن الأنظار حتى انضم الينا « باكلو » والحارس . وراحا في الضحك من جديد .

«سمعت كل شيء » قال الحارس « وكدت أتمزق تحت هذا الحزام » .

قبض على حقيبة الرصاص وراح يشدها .

«فيم سيفكر الأوروبيون بعد ذلك ؟ » قال الطاهي « إنهم غير مختونين ومع ذلك يلفونه بأشياء أخرى » .

« الأشياء التي يشترونها من الصيدلية تمنع زوجاتهم من الحمل » ، قال باكلو « وهم يستعملونها حين ينامون مع نساء محليات حتى لا يعديهم المرض . قال لي ذلك أحد الخبراء . . » .

« اذا كانوا لا يريدون لزوجاتهم أن يحملن فلماذا يفعلون ذلك أصلاً ؟ » سأل الحارس « انهم مجانين ، هؤلاء البيض . كيف يستطيعون الادعاء بأنهم (يفعلونها) بينما هم في الحقيقة يفعلون ذلك مع كيس مطاطي صغير ؟ » .

وأمضوا طيلة بعد الظهيرة في نقاش حول مانعات الحمل .

عادت « السيدة » في الساعة الرابعة . سارت عبر الفناء مطأطئة رأسها . غابت دخل غرفتها ولم تظهر الا على العشاء . لم تأكل من الفرخة الا القليل واكتفت بالموزة وفنجان القهوة . ابتلعت حبوبها وأخبرتنا أن لا ننصرف قبل منتصف الليل .

وعندما انصرفنا كانت تشخر . وساعدني الحارس في اقفال أبواب « المقر » ونوافذه .

*

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت السيدة قد طلبت من الطاهي أن يجد لها خادمة لغرفة النوم . وقد جاء الطاهي هذا الصباح بالفتاة التي وجد . وقال أن الفتاة هي ابنة عم ابن أخت زوج اخته .

جاءت حافية ، بقفاها النافر ونهديها الصلبين ، ترتدي سترة أنيقة فوق فستانها وتضع قرطاً ذهبياً واحداً لتستر فقرها . فتاة حقيقية من طينتنا ، شفاه ممتلئة وعيون سوداء ووجه ناعس . كانت جالسةعلى الدرجة الأخيرة تنتظر « السيدة » وفي فمها غُصين صغير . وقد أخبرنا الطاهي أنه اكتشف في الليلة الماضية ، فقط ، بأن قرابة تجمعهما . نعم ، لقد كانت ، حقاً ، ابنة عم ابن أخت زوج أخته .

« إنها ابنة المدينة » قال الطاهي « لم تعُد قط الى القرية . فالبيض ، كلهم ، مغرمون بقفاها . وقد رأيتم ، بالطبع ، الارداف الرائعة النافرة من تحت ثيابها كأنها كَبِدُ فيل . . لكنها لن تجني منها ثروة . فهي لا تثبت في مكان وكأنَّ والديها قد أكلا بائعاً متجولاً . عاشت على الشاطىء مع رجل أبيض قال لها مراراً أنه سيتزوجها ويحملها معه إلى الوطن . وأنت تعلم ، حين يتزوج رجل أبيض فتاة من أهلنا ، فهي تكون ، عادة ، شيئاً خاصاً . وقد طار صواب الرجل الأبيض بها . فابنة عم ابن أخت زوج أختي أضاعته في ليلة واحدة . وقالوا أنك كنت تراه يمضي النهار بطوله مع « كاليسيا » ـ ذلك هو اسمها ـ جاثياً على ركبتين من جلد وعظم . وبعد ذلك ، في صبيحة يوم ، رحلت « كاليسيا » . رحلت ، هكذا بسهولة ، مع رحيل الطيور في نهاية الصيف . . وصرخ الرجل الأبيض ، جال السموات والأرض بحثاً عنها . وخافوا عليه أن يفقد عقله فأمر القومندان ، المسؤول هناك ، بترحيله الى الوطن . ولما نالت كاليسيا كفايتها من الرجال البيض ذهبت لتعيش مع واحد من زنوج الشاطىء ـ تعرفهم ، الزنوج ذوي البشرة المالحة . وتركتْه بعد فترة . وتنقلتْ بعد ذلك بين رجال بيض وسود وآخرين بين بين . وأخيراً ، عادت إلى دانغان كطائر يحط على الأرض بعد أن أرهقه الطيران في الهواء . . » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« وهذه هي التي اخترتها لتكون خادمة غرفة نوم السيدة ؟ » سأل باكلو وهو مأخود بتاريخ الفتاة الحافل . « هناك الكثير من النساء في المنطقة . . » .

« طلبتِ السيدة فتاةً نظيفة تفهم الفرنسية وليست لصّة . ولم أجد أفضل منها . والأهم أنها تعرف البيض أكثر من أي واحد منا » قال وهو ينظر إلى كل منا بدوره .

« أخشى أن تثير الفتاة مشاكل تودي بنا جميعنا إلى السجن » قال باكلو « فأي رجل له عينان يستطيع ، بصعوبة ، أن يراها ولا . . » .

ضحك الطاهي وسأل :

« هل تتكلم عن القومندان أم عن واحد منا ؟ القومندان أعرفه . انه من نوع الرجل الذي يستطيع أن يكبح مشاعره مهما كانت عنيفة . كما أن زوجته هنا ، فلا خطر . والمقر ليس كبيراً ، ولا أستطيع ، بأي شكل ، أن أتصور القومندان زاحفاً في خندق » .

« لا يمكنك الاعتماد على شيء من الكرامة في أمور كهذه » قال باكلو « وخصوصاً عند البيض . خذ السيدة على سبيل المثال . . » .

« سنرى » قال الطاهي « النساء تحس بهذه الأشياء . فاذا قبلت السيدة كاليسيا للعمل فاسمح لي أن أقول انها لا تحس بخطر ما » .

كانت السيدة ، حتى التاسعة ، تغط في النوم . وحرارة الشمس ، في ذلك الوقت ، قد أصبحت حامية يتقلّى الجلْد تحتها بصورة محببة . ضمّتْ « كاليسيا » ركبتيها تحت ذقنها وابتدأت غفوة كغفوة لسحلية الرمادية الجاثمة على مِزَقِ جريدة الى جانبها . وتمدّد باكلو على بطنه خلف بيت الغسيل ، بينما كنت أجلس في أعلى الدرج أنتظر صحوة السيدة وقد سمحت لاحساس بالرخاء الدافىء أن يتسرب إلى جسدي .

وفجأة ، انفتحت نافذة السيدة فاستيقظتُ مجفلاً . فركت السيدة عينيها وزرّرت سترة منامتها . تمطّت وكبتت تثاؤبه ثم نادت عليّ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تكلمتْ من خلف الجدار دون أن تفتح الباب . وأرسلتني لأغيّر ماء « الدوش » فهي تريد أن تغتسل اليوم بماء بارد . وعند الساعة الحادية عشرة ، والسيدة طازجة كفرخ عمره يوم واحد ، قامت بجولة تفتيش على الغرف التي نظفتُها . ألقتْ نظرة على قائمة الطعام لذلك اليوم وتفقّدت ما تبقّى من الخمر وشربت كأس عصير الليمون التي أعدّها لها كل صباح ، ثم انصرفت لقراءة الرسائل التي تنتظر على أريكتها .

دخل الطاهي فسألتهُ السيدة بانزعاج عما يريد .

« الفتاة خادمة غرفة النوم تنتظر في الخارج . . » قال مع ابتسامة عريضة وانحناءة حادّة .

لدى الطاهي نزوع طبيعي لابداء الاحترام . ما عليك الا أن تراقبه وهو ينحني أمام السيدة أو القومندان . تبدأ انحناءته بارتعاش خفيف في كتفيه ، ينتشر تدريجياً في كل بدنه . بعد ذلك يبدأ جسده ، وكأنه تحت سيطرة قوة غامضة ، بالانحناء الى الأمام . يسمح لجسده بالهبوط بينما ذراعاه مشدودتان الى جانبيه . تلتصق معدته بظهره ويرتخي رأسه على صدره . وتظهر في نفس الوقت غمازتان ضاحكتان على خديه . وعندما يبلغ وضع شجرة على وشك السقوط تحت ضربة فأس يرسم ابتسامته العريضة .

ومنذ أن قالت له « السيدة » بأنه رجل لطيف أصبح الطاهي يحسّ بأن أهميته تزداد ، كل يوم ، مع كل انحناءة .

ولم يلاحظ الطاهي تلك النظرة الباردة التي رمقته السيدة بها من فوق الرسالة التي كانت تمر بسرعة بين سطورها .

سألته : « أين هي ؟ » . فأسرع خارجاً واستدعى كاليسيا .

ردت « كاليسيا » عليه بهمهمة وزرّرت سترتها . سحبت الغُصين الذي كانت تمصه ، وراحت تتسلق الدرج بلا مبالاة ، وقد بدا كل ما في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جسدها ضجراً . لم تبذل أي جهد في جرّ قدمها التي كانت تعلق بكل درجة تصعدها .

أطلت « كاليسيا » برأسها عبر البوابة وحدّقت بنا ، فعادت « السيدة » الى قراءة الرسالة بيد وراحت تنقر ، من آن لآخر ، « حاملة » سيجارتها باليد الأخرى . ووقف الطاهي قربها في وضع انتباه وهو يحدق في السقف .

وأخيراً ، انتهت السيدة من قراءة الرسالة . تنهدتْ ، ونظرتْ الينا تباعاً . « أدخل المرأة » قالت السيدة للطاهي .

أشار الطاهي لكاليسيا ، فسعلتْ ومسحتْ شفتيها ثم دخلت .

أرسلتْ كاليسيا الى السيدة نظرة لا مبالية وقحة ، تلك النظرة التي تثير السيدة حين تأتي من افريقي .

كان التناقض بين المرأتين صارخاً . الافريقية هادئة هدوءاً لا يبدو أن شيئاً يستطيع زعزعته . ألقت على « السيدة» ، بلا اهتمام ، نظرة فارغة كنظرة خروف في اجترار . . وتغيّر لون « السيدة » مرتين ، وتبلل فستانها بالعرق ، تحت الابطين . وموجة العرق هذه تعلن ، دوماً ، احدى ثورات غضب السيدة . . قاستِ السيدةُ ، بنظرتها ، كاليسيا من الرأس حتى القدمين ، وهبطت زاويتا فمها . نهضت ـ كانت كاليسيا أطول منها قليلاً ـ وراحت تدور حول كاليسيا . ورغم أن كاليسيا كانت تتظاهر بالنظر إلى راحتيها الا أنها في الحقيقة كانت غائبة تماماً . عادت « السيدة » الى الجلوس أمامها وراحت تنقر الأرض بقدميها . صكّ الطاهي كعبيه في تهيؤ ، فنظرت كاليسيا الى قريبها ، معرجة بلمحة سريعة إلى السيدة . فاحمرّ وجه السيدة . وأشحتُ بوجهي كي لا أنفلت بالضحك .

« سيد تاوندي » . أرعدت السيدة .

أشعلتْ سيجارة وسحبت نفساً . وعندما نفخت الدخان بدا كأن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جسدها قد تهالك وظهرت حبيبات عرق على جبينها .

«هل عملتِ خادمة لغرف النوم سابقاً ؟ » سألت السيدة .

«نعم » أجابت كاليسيا بصوت رخو ممطوط وبابتسامة .

«أين ؟ » .

« هناك ـ على الشاطىء » أجابت كاليسيا مشيرة بيدها الى الغرب باتجاه البحر .

واستطعتُ ، بشق الأنفس ، ضبط نفسي . عضضتُ على شفتي . فلدى كاليسيا فكرة خاصة ، نوعاً ، عن طبيعة الوظيفة . تدخلتُ ، وأوضحت للسيدة أن عليها أن تضع السؤال بشكل آخر ـ شيء كهذا ـ ، « هل سبق أن عملت خادمة لسيدة » فندت عن كاليسيا « آه » وقالت بلغتنا أنه كان سيدور بينهما حديث ممتع بأهداف مختلفة تماماً .

اعترفت كاليسيا ، بعد ذلك ، بأنها لم تعمل في حياتها ، أبداً ، خادمة لغرف النوم ، ولكنها ستبذل قصارى جهدها لتكون مرضية في عملها لأنها منذ اللحظة لا تريد أن تكسب عيشاً بطريقة أخرى .

بدا كأن « السيدة » قد تأثرت بنصف الاعتراف هذا . ووجدت فيه مبرراً ـ ذاتياً لتستعيد ، فوراً ، إحساسها بالتفوق .

« سأرى ما أستطيع عمله من أجلكِ » ، قالت السيدة « تاوندي سيريكِ المكان » . صرفتنا بقفا يدها ، ثم صاحت وراءنا « يمكنكِ البدء حالاً » .

تبعتني كاليسيا الى غرفة نوم السيدة .

« هؤلاء البيض أغنياء » قالت وهي تنظر حولها في الغرفة « أحب العمل عند بيض كهؤلاء . وتعلم . . حين يكون البيض فقراء يكونون حقيرين كملقّن . . عشتُ مرة مع رجل أبيض اعتاد أن يحصي قوالب السكّر ويقيس الرغيف بعد كل وجبة . كيف هم هنا ؟ » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« ليسوا سيئين حين لا يكونون غضاباً . سترين . . » .

« الزوجة جميلة » قالت كاليسيا « امرأة بيضاء بعيون كعيونها لا تستغني عن الرجل . دعني أرى . (تلصصت على السيدة من خلال شق الباب) . أقول أنها لا تستغني عن الرجل حتى ولا لأسبوعين . . أراهن أنها عاشقة . . من هو ؟ » .

« سترين بنفسك » قلت .

« أيها الوغد المحتال . . أيها الشيطان البارع » صاحت كاليسيا « وِرْكانِ نحيفان كوركيك هما دائماً عشّ لثعبان ضخم . (قرصتّ قفاي) . لا تعتقد أن السيدة تجهل ذلك ! » .

قبضت على عضوي وأطلقت صرخة خشنة .

« أترى ، كنتُ مصيبة » قالت « أعرف ، لقد تذوَّقَ طعم اللحم الأبيض . أنت . أنت رجل (السيدة) . لقد أدركت ذلك رأساً ، فذلك واضح في عينيها حين تتحدث اليك » .

كان هذا كثيراً . فانفتاحها ورفعها للكلفة قد أثارا غضبي . هجمتُ عليها بعيون متّقدة فاستكانت حالاً .

« لم أقصد اثارة غضبك يا أخي » قالت بندم جعل غضبي يتلاشى سريعاً .

«لا يهم » قلت « الا أنك تماديتِ قليلاً » .

ابتسمنا وغمزتني ، ورحنا ، معاً ، نقلب فرشة السيدة .

« كيف هي ؟ » سألت كاليسيا بعد فترة صمت .

« من ؟ » سألتها .

« السيدة » .

رسمتُ على وجهي تعبيراً مبهماً . فعادت الى التحقيق من جديد .

« كم مرة (تعملها) في الأسبوع » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رفعت يدي في دهشة ، وقلت :

« اسمعي . أما ان تبقي فمك مغلقاً أو تعودي إلى البيت . فربما تكونين مجنونة أما أنا فلا . . » .

« يا عزيزي ! » قالت كاليسيا « إذن لا شيء بينكما حقاً ؟ ولكنك رجل . . هناك على الشاطىء ينام الخدم مع سيداتهم . . ذلك شيء عادي . أما هنا فأنتم تخافون البيض . . أقول لك . . من السخف أن تخاف . . » .

«حسناً » قلت لأقطع استرسالها في الكلام .

مددنا الشرشف على السرير . ودخلت السيدة ولم تعلّق على ما عملنا .

« إنها امرأة حقاً » قالت كاليسيا المخيفة بعد أن خرجت السيدة .

كاليسيا ستعمل ، في المقر ، ساعتين كل يوم . ورغم ذلك فهي رائعة . . رائعة . .

*

فاجأنا القومندان بعودته اليوم بعد الظهر . لم نكن نتوقع عودته قبل نهاية الأسبوع . وقد ظهر الارتباك على السيدة .

كان وجه القومندان ممتقعاً . وبدا ، في بنطلونه القصير المجعلك القذر ، كتلميذ هارب من المدرسة . هبط من السيارة دون أن يتفوه بكلمة . حمل حقيبته ومسّ بشفتيه جبين السيدة وسار متثاقلاً نحو غرفته . طلبتْ السيدة أن نفرغ السيارة ولحقت به ، وتركتِ الباب وراءها مفتوحاً .

تقدمتِ السيدة إلى زوجها وسألته عمّا يزعجه ، فردّ بنخرة . أصرّت على سؤاله حتى تضايق وقال بأن صحتها الجيدة لا تشير إلى قلقها عليه . سكتت لحظة ، قالت بعدها بأنه كان ظالماً .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذهبت الى أرجوحتها في الشرفة وتمددت عليها ، وهامت في أفكارها وقتاً طويلاً . استراح القومندان وطلب إعداد الحمام . وظهر ، بعد ذلك ببدلته الكتانية البيضاء وقد حلق ذقنه ومعجن شعره واسترد لون وجهه. جلس يقرأ المراسلات الرسمية التي أحضرها موظف الارتباط للسيدة .

لم تقل « السيدة » شيئاً . وبدا كأن القومندان قد نسي وجودها . فقد نزل الى الحديقة وسار مسافة ، بعيداً عن « المقر » ويده في جيبه . عاد باتجاه الشرفة كأنه يقصد زوجته ، ولكنه انحرف مبتعداً ودخل غرفة الاستقبال .

نزلتِ « السيدة » عن أرجوحتها وسارت ،بدورها ، الى الحديقة . فاستدعاني القومندان وأرسلني للبحث عنها .

وجدتها تحدق في الفضاء أمامها وقد ركنت رأسها بين إصبع يدها اليمنى وابهامها . لم تسمعني وأنا اقترب . وسعلتُ فأجفلتْ ، ثم استمعت الى رسالتي دون أن تنطق بكلمة وتبعتني الى « المقر » .

عندما استدعاني القومندان أحسستُ بأنه ، في تلك اللحظة ، قد غير رأيه حول شيء ما . وأنه لذلك أرسلني وراء السيدة . كان مضطجعاً على الأريكة يخبىء في يده شيئاً . كان وقتُ « مُقبِّلات » المساء قد حان . وعندما دخلت السيدة الى الغرفة اتخذتُ مكاني قرب الثلاجة لأبرر بقائي .

لم ينظر القومندان الى عينيْ زوجته وبدا بارداً متألماً .

« ما الذي يزعجك ؟ » سألت الزوجة وهي تتحسس كتفه .

نفر القومندان مبتعداً . لكنه انتبه لوجودي فعاد وسمح لزوجته أن تمسه . أبقى قبضته اليمنى تحت الطاولة . وتسلطت عينا السيدة وعيناي ، في نفس اللحظة ، على تلك القبضة . رفع كأسه بيده اليسرى وأفرغها في جرعة واحدة ، وطلب مزيداً من البراندي .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« براندي بحق المسيح » جأر بصوت عميق .

كرع كأساً وأخرى . وحاولت « السيدة » أن توقفه فسحب ذراعه بعنف . وانطلقت السيدة مسرعة الى غرفتها .

حاول القومندان الوقوف ولكنه ترنح ، وأخطأ الأريكة فسقط على الأرض . وعندما تقدمتُ أساعده على النهوض شتمني . لم أره بهذه الصورة حتى قبل أن تأتي زوجته الى البلاد .

استطاع النهوض الى مقعده وأمضى وقتاً طويلاً يحدق في السقف وقد صالب يديه على بطنه . وفجأة انفجرت السيدة بالصراخ في غرفتها ، وأمرتني بالانصراف .

« كلا . ليبق هنا » صاح القومندان « ليبق هنا ! » .

كان يجلس على حافة اريكة وهو ينظر الى زوجته التي وقفتْ ذاهلة متحجرة في وسط الغرفة . وفجأة ، قذفها بشيء ما انزلق على أرض الغرفة نحو الثلاجة . كان الشيء « ولاعة » . ولاعة السيد مورو . لقد رأيتها مرة واحدة يوم جاء السيد مورو للغداء ، ولكنني تميّزتُها .

وضعتِ السيدة رأسها بين يديها وسقطت على كنبة .

« ماذا عن هذه ؟» صاح القومندان وهو يشير إلى الولاعة « ماذا ستقولين ، ها ، يا سيدة ديكازي ؟ » .

هزّ النشيج كتفيها ، ولكنها ضبطت نفسها ورفعت رأسها بعجرفة ، وقالت :

« اتركنا يا ولد » .

« أتركنا ؟ » صاح القومندان « هل من أسرار بيننا ؟ كل الخدم في دانغان يعرفون ذلك . نعم . . تنامين مع « مورو » ـ الرجل الذي كنت ترينه مسكيناً . . » .

وقفت السيدة . سارت أمامه ، جيئة وذهاباً ، وهي تعصر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

راحتيها . وراقبها القومندان بعيون حاقدة . ظلت تروح أمامه وتجيء وعيونها تقع بين حين وحين على الولاعة ، ثم استدارت ووقفت أمامه . ومرّت نظرات القومندان من فوق كتفيها الى الخارج عبر النافذة خلفها . وقال :

« لا نستطيع الاستمرار معاً بعد ذلك ؟ لم تنتظري ، ولو قليلاً ، للبدء في خداعي ، هنا أيضاً . . المحليون عرفوا بذلك قبلي » .

ابتسم ابتسامة شاحبة وتابع :

« بالنسبة لهم أنا (نغوفينا يا نغال آفيسزوت بيسالاك آبي ميتو) . هل تعرفين ما يعنيه ذلك ؟ بالطبع لا . فلم تهتمي أبداً بأن تتعلمي اللغة المحلية . انها تعني ، أنني ، أينما أذهب ، القومندان الذي تفتح زوجته ساقيها في الخنادق والسيارات » .

« ليس صحيحاً » صاحت السيدة « هذا ليس صحيحاً ! » .

وراحت تنشج .

« ولم أكن أعلم أن لي شرف أن أصير « ديوساً » على يد السيد « مورو » ! قال القومندان بازدراء مشدّداً على كلمة « السيد » . « كان عليك أن تذهبي ، هذه المرة ، الى المجاري لتجدي لنفسك عاشقاً » .

صمت لحظة ثم عاود الكلام .

«لو تعلمين ، كم أحس بالغثيان . . » .

كانت السيدة تبكي ، والقومندان قد تمدد على الأريكة .

« إصغِ إليَّ يا عزيزي . . » قالت السيدة وقد رفعت وجهاً تنهمر منه الدموع .

« أعرف . أعرف » قال القومندان وابتسامة على زاوية فمه « أعرف القصة القديمة . ضعفك الشديد . . السهولة التي تنحرفين بها . . الصراع بين الجسد والروح . حسناً ، لقد سئمت ذلك . هل تسمعين . سئمت ذلك . فأنت تعتبرينني على الدوام مغفلاً . آه . .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طلعاتك في السيارة يوم الخميس ! وهذا السيد مورو الذي ما كنت تذكرينه الا بالازدراء ! دعوتهم للعشاء لأن واجبنا الحذر كي لا ننظر اليهم بغضاضة لأنهم ليسوا من نوعنا ! كنت أعرف ، ياعزيزتي ، ما كنت تنوين . . فالمحليون كانوا قد بدأوا يلقبونني « نغوفينا يا نغال أفيسزوت بيسالاك آبي ميتو » ! لكنني لم أكن أعلم أن الأمر معه . . وأنتْ . . » صرخ وقد رفع رأسه ونظر اليَّ « كنت أنتَ الرسول بينهما . ها ؟ من اجل سيجارة من السيد مورو وهدية صغيرة من السيدة ـ ها ؟ » .

هزّ رأسه بأسى وسقط ثانية على اريكة . والسيدة كانت لا تزال تبكي عندما دقت ساعة « المقر » معلنة منتصف الليل .

كان القومندان يراقبني بطرف عينيه . وكنت أحس بعيني السيدة ترقباني من بين أصابعها . فككتُ مريلتي . وقبل أن أخرج الى الشرفة أعلقُها هناك ، كما أفعل كل ليلة بعد انتهاء عملي ، انحنيت وتمنيت لهما ليلة طيبة .

تحرك القومندان وانقلب الى الحائط . وأغلقت السيدة الباب خلفي .

كان الليل حالكاً ، غابت فيه النجوم وذباب النار .

*

فغرتْ كاليسيا فمها بالدهشة وهي تستمع لي وتطقطق مفاصل أصابعها من وقت لآخر . وعندما انتهيتُ من رواية ما سمعتُ ، نظرتْ اليَّ بعصبية ثم أشاحت برأسها .

«لو كنتُ مكانك لرحلتُ سريعاً قبل أن يبتلعني النهرُ مرة فجأةً . قال أجدادنا ، « عليك أن تفر ما دام الماء الى الركبتين » . فالقومندان لن يستطيع النسيان ما دمتَ موجوداً . هذا شيء سخيف ، ولكن تلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هي الحال مع البيض . ستكون بالنسبة له . . . لا أعرف ماذا أقول . . ستكون كعين الساحر التي ترى وتعرف . . فاللص ، أو أي انسان بضمير مثقل ، لن يكون على ما يرام ما دامت عين كهذه ترقبه . . » .

« لكنني لستُ الوحيد الذي يعرف أن « السيدة » تنام مع السيد مورو . . » قلت لها بدون كبير اقتناع « القومندان بنفسه قال أن المحليين جميعاً قد عرفوا . . » .

هزت كاليسيا كتفيها وقالت :

« هذا لا يشكّل فرقاً . . ففي « المقر » أنت كشيء . . لا أعرف ما أسميه . . شيء يمثلنا جميعاً . أنا لا أتحدث عن قريبي الطاهي أو عن باكلو ـ فهم رجال لأنه قد صادف أن للواحد منهم خصية . . لو كنت سخيفة ما يكفي ، لأُقدم على الزواج لتزوجت واحداً مثلك . . كنت أقول ، مع ذلك ، فانهم لن يستطيعوا نسياناً ما دمت موجوداً لأنك تعرف تفاصيل قضيتهم . ولذلك فهم لن يغفروا لك أبداً . اذ كيف يمكنهم أن يسيروا أمامك بخيلاء والسيجارة تتدلى من شفاههم ـ ما دمت « تعرف » ؟ بالنسبة لهم ، أنت من نَشَرَ الخبر بين الجميع . وهم لا يستطيعون التخلص من احساسهم بأنك تقف حكماً عليهم . وهذا ما لن يقبلوا به . . أقسم ، لو كنت مكانك ، لرحلت في الحال . . وحتى ، لما انتظرت أجرة الشهر .

نظرت « كاليسيا » اليّ وكأنها تتوقع مني الفرار حال انتهائها من الكلام . صفَقَتْ كفيها وأرخت رداءها ثم عقدته عقدة كبيرة تحت سرتها .

لم تنظر الي ونحن نسير الى « المقر » جنباً إلى جنب . وبعد قليل اختفت خلف شجيرة كي أتمكن من السير وحيداً ، ونادت عليَّ : « اذهب وحدك فأنا ذاهبة لزيارة السيد « تواليت » الذي ترفع تنورتك ، لا قبعتك ، لتحيته » . وغاب قفاها في أجمة من العشب .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هل كنت خائفاً ؟ لا أظن ذلك . لم يبد ما قالته « كاليسيا » غريباً . هنالك أشياء يفضّل الانسان أن لا يفكر فيها ، ولكن ذلك لا يعني أنه نسيها . فحين غادرت « المقر » ليلة أمس تفحّصت الظلام حولي عدة مرات . فقد داخلني الشك بأن أحداً ما يتبعني . ودخلت البيت وإحساس صقيعي يجتاحني . وبعدما تمددت على طراحتي استعرضت ، بمخيّلتي ، كامل المشهد في « المقر » . . ما من شك في أن القومندان قد اعتاد خيانة زوجته له . وأدركت ، الآن ، لماذا كان يتظاهر بعدم الفهم أو السماع حين كان أبناء بلدي يحيونه ثم يصيحون خلفه « نغوفينا يا نغال آفسيزوت بيسالاك » . فيتشاغل بالتصفير ، أو بغيره ، ليظهر عدم الفهم ، ويُخرج رأسه من نافذة السيارة واصبعه مرفوعة الى حافة قبعته .

*

لا جديد اليوم سوى أن القومندان يزداد بغضه لي . لقد غدا متوحشاً تماماً . وعادت ، من جديد ، ركلاته وشتائمه ، يرى فيها وسيلة لاحتقاري ولا يجد وسيلة أخرى . ونسي أن ذلك جزء من عملي كخادم ، ذلك العمل الذي ما عادت أسراره خافية عليَّ . ولكنني استغربتُ لماذا بدأ ، هو الآخر ، يقول لي « سيد تاوندي » . .

*

دخلت ، والقومندان يقبل السيدة . كنت أظن أنه سيمتنع عن ذلك مدة أطول . وقتها ، كصبي يسرق شيئاً يتظاهر بأنه لا يريده . فتحققتُ ، عندها ، أن السيدة تقدر على فعل ما تريد .

« أنت . . . ها أنت تبدأ بالتجسس علينا ! » زعق القومندان لاهثاً .

لم يجرؤ طوال الأمسية على النظر الى عينيَّ . بينما علَتِ ابتسامة خفيفة شفتي السيدة واستدقّت عيناها كبقعتين مستديرتين تنظران تارة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اليّ وأخرى الى القومندان ، وهي تنقر الطاولة بأصابعها .

*

داس القومندان على يدي اليسرى وهو يحدِّثُ السيدة متظاهراً بأنه لم يلحظ ذلك . تعمّد أن يدوس يدي بينما أنا غافل عنه ، منشغل بتلميع حذائه قبل أن يخرج .

القومندان يفتقر الى الذاكرة والخيال . فقد نسي أنه جرب ذلك ، مرة ، ولم يدفعني الى الصراخ . فعل ذلك في المرة الأولى دون أن ينظر حوله ، ولكنه هذه المرة سار بمرح كرجل سرّه ما فعل .

كان القومندان يجلس على الأريكة بجانب زوجته وبيده جريدة يتظاهر بقراءتها . أنهيت تنظيف الطاولة في حرّ الظهيرة الشديد . والقومندان صامت ، لم يقل كلمة واحدة ، فنظراته ، وخاصة عند الغضب ، تكفي . وقد انصبَّت كلها عليّ .

كانت السيدة خلال وجبة الطعام قد قامت بمحاولة فاشلة في التحقيق مع زوجها عن صباح يومه ، غرقت بعدها في حلم نهارّي لم تكن تقطعه الا لتتناول الأطباق التي تصل . وهي ، الآن ، تجلس الى جانب زوجها مستغرقة في القراءة . وأستطيع أن أرى حاجبي القومندان ترتفع فوق جريدته .

« الجو حار » قال ، وهو يفك أزرار قميصه الكاكي « الجو حار » .

« لم لا تخلع القميص وتظل بالفانيللا ؟ » قالت زوجته .

فك أزرار القميص وسحبه من تحت بنطلونه القصير ولكنه لم يخلعه . وعادت هي الى روايتها .

طلب القومندان كأس ماء وسألني ، عندما أحضرتها ، اذا كان الماء مغلياً .

« نعم ، الماء مغليّ » قلت له .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التقـط الكأس باصبع وابهام ورفعه الى عينيه ثم مدّ ذراعه على طولها ورفع الكأس الى ما فوق رأسه وعاد فأنزلها الى عينيه . قرّبها من أنفه وكشّر ثم وضعها على الطبق وطلب كأساً أخرى .

هزّت زوجته كتفيها هزة خفيفة .

عدتُ الى الثلاجة واغتنمت فرصة انشغال القومندان عني لأبصق ـ بضع نقيطات من البصاق ـ في الكأس النظيفة التي أملؤها . شربها ، وأعاد الكأس الفارغة الى الطبق دون أن ينظر اليّ ، وصرفني باشارة عصبية من قفا يده .

طوى جريدته وتمطى ثم نهض وراح يتشمّم كأنه التقط رائحة كريهة . ودار أنفه من ناحية الى أخرى كدوارة الريح ، واستقر على مصراع نافذة أغلقته الريح .

« هنالك رائحة . . رائحة ما . افتح ذلك المصراع » . أمر القومندان . تقلّص أنف السيدة وراحت تتشمّم الهواء مع حركات رقيقة من جسدها . رفعت بصرها الى ظهر زوجها ثم عادت إلى القراءة . فتحتُ المصراع وعدتُ مارّاً من أمام القومندان ، فأوقفني .

« ربما هي رائحتك » قال شامخاً بأنفه « ربما هي رائحتك » .

نظرت السيدة الى السقف . وأشار القومندان بذقنه أن أبتعد . عاد الى الأريكة ومزق قطعة من الجريدة ليسند بها المصراع الذي فتحتُه ولم ينغلق .

« حين يكون حولك محليون . . يجب أن تُبقي كل شيء مفتوحاً » قال وهو يحاول إدخال الورقة الى فصّالة النافذة .

خرج القومندان الى الشرفة وجلس ، بصدْره العاري ، على كرسي مريح .

وعندما انتهى عملي انحنيت للسيدة ودخلت الى المطبخ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وسمعت ، وأنا أعبر الشرفة ، خطو القومندان عائداً إلى الغرفة .

*

أعتُقلتُ هذا الصباح .

أكتُب هذه الكلمات وأنا أجلس على قفا مجرّحة في بيت رئيس الشرطة المحلّي الذي سيسلمني الى السيد مورو لدى عودته من رحلته .

حدث ذلك وأنا أقدّم الأفطار . فقد وصل غاليت والمهندس الزراعي بسيارة ، توقفتْ في الخارج مع صرير الفرامل . تسلقا الدرج ركضاً واعتذرا عن ازعاج القومندان في الصباح الباكر .

« الأمر يتعلق بخادمك » قال غاليت وهو ينثي رقبته باتجاهي .

انزلق وعاء القهوة من بين يديّ وتحطم على الأرض الاسمنتية .

« يعرف لماذا أتينا » ، قال غاليت متحمساً للعمل « أليس كذلك يا صبي ؟ » .

أبعد القومندان كأسه ومسح فمه واستدار نحوي . وضحكت السيدة عاقدة زاوية فمها . وبدا عاشق صوفي قلقاً فقد استأذن السيدة بالتدخين . وبعد محاولتين استخرج ولاعته . وأما غاليت فكان في غاية الهدوء .

« والآن » بدأ غاليت « اختفت طاهية السيد (ماغنول) ومعها أجور العمال » .

« لاحظت ذلك الساعة السادسة » قال عاشق صوفي بصوت متهدّج « اختفى الصندوق من درجي فناديت على طاهيتي التي تعرفونها » استمر في حديثه بايماءة نحو القومندان « وكانت غرفتها خالية . . . العاه . . » .

سعل حتى لا يكمل عبارته وحتى يغطي على محاولته تصحيح نفسه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد فوات الأوان . واحمّر لونه . وقال :

« لقد هربت بصندوق النقود وملابسي وبأشيائها الخاصة » .

حدجني بنظرة تعني أنه يستطيع أن يشجّ رأسي .

« يبدو أنها الخطيبة - الخليلة لخادمكم » قال غاليت مبدياً افتخاراً بالاسم المركب الذي ابتكره .

« لقد أغلقتُ الحدود لحظة أنذرني السيد ماغنول . ورجالي ، الآن ، يفتشون « الموقع » . واعتقدنا أن خادمك . . » .

« كم كان في الصندوق ؟ » سأل القومندان .

« مائة وخمسون ألف فرنك » قال المهندس الزراعي « مائة وخمسون ألف فرنك » .

« هكذا ! » قال القومندان وهو يحدجني بنظراته .

همست زوجة القومندان شيئاً ما في أذنه فرأيت عينيه تتسعان . تحدثا معاً للحظات ثم تنحنح القومندان وأشار الي .

« حسناً ، ما لديك لتقول ؟ » .

« هل تعرف الشخص المعني ؟ » .

« نعم ، سيدي » .

« أين هي ؟ » .

أومضت عيناه بالرضا وهو ينفخ جانب خده ويميل كتفيه . وبعد نقاش قصير مع زوجته فرك كفيه وقال دون أن ينظر اليّ .

« حسناً ، عليك أن تصفّي هذه القضية مع السادة . . » .

ثنى غاليت عنقه وتنهد عاشق صوفي ، واستدعت « السيدةُ » خادمتَها كاليسيا .

« أعطها مريلتك » قال القومندان دون أن ينظر اليّ :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« هيا ، لنذهب » قال غاليت وهو ينهض .

خرج عاشق صوفي أولاً . واعتذرا للقومندان وزوجته من جديد .

تبعتُ الرجلين الأبيضين . وانهمرت الدموع غزيرةً من عيون كاليسيا وهي تربط مريلتي ، التي بلغت قدميها ، حول خصرها . وانطلقت السيدة الى مسكب الزهور تتقافز كفتاة صغيرة .

لم يأت « باكلو » ولا الطاهي ، حتى هذه اللحظة ، الى عملهما . وأما الحارس فقط اطلق لعنةً ، بلغتنا ، على كل البيض .

كان غاليت وعاشق صوفي قد وصلا في « لاندروفر » . وعندما غادرنا « المقر » جلس « غاليت » معي في الخلف ، ليمنعني من الهرب ، بينما قاد عاشق صوفي السيارة . سرنا في الطريق الى مركز الشرطة وغاليت قابض على حزامي ويدوس ، من حين لآخر ، على ابهام قدمي ويراقبني بيقظة .

قاد المهندس الزراعي السيارة بسرعة كبيرة فكان المشاة يفرون في رعب حين يمر بهم « اللاندروفر » في انحناءات سريعة .

« ماذا حدث ؟ » كان أبناء بلدي يصيحون بلغتنا وهم يلوّحون لي .

شدّني غاليت اليه بقوة أكبر وأراح نعله ، بمساميره الغليظة ، على قدمي . وهكذا عبرنا المركز التجاري وانحرفت بنا السيارة الى معسكر الشرطة ، فوقفنا أمام كوخ صفيحيّ لا لون له ، يرفرف على سطحه علم مثلث الألوان .

قفز غاليت من « اللاندروفر » وجرّني معه فأدمى ركبتي . وأسرع شرطي يقف بانتباه . وحتى يظهر الشرطي حماسه للعمل ضربني بحافة يده ضربة عنيفة على عنقي فغاب كل شيء حولي في وميض أصفر شامل .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنت ممدّداً ووجهي الى الأرض حين عدت الى وعيي . وقد وقف غاليت فوقي فاتحاً ساقيه حول جسمي ويجري لي تنفساً اصطناعياً .

« هذا حسن » قال عاشق صوفي « **ها هو يعود إلى وعيه** » .

أوقفوني على قدمي ، وسألني غاليت عن مكان صوفي .

«ربما هربت الى غينيا الاسبانية » . أجبت .

« كيف عرفت ! » صرخ عاشق صوفي .

«هي أخبرتني . . » .

« متى ؟ ها ، متى ؟ » .

« منذ ثمانية أشهر . . » .

« علمتَ بذلك الليلة الماضية ؟ » سأل غاليت .

« كلا يا سيدي » . أجبت .

« فكيف عرفت أنها راحلة الى غينيا الاسبانية ؟ » .

« قالت ، منذ ثمانية أشهر ، أنها ستفعل ذلك » .

« كنت ، على كل حال ، عاشقها ؟ » .

عبس وجه السيد ماغنول لذلك ، واسودَّ . قبض عليَّ من « جرزتي » وحدق في عيني .

« اعترف بذلك » زعق وهو ينفث في وجهي نفساً منتناً « اعترف إ . . » .

أحسست بالضحك يلح عليَّ بشدة . وراقب الأبيضان ذلك بدهشة . وبعد ذلك تركني عاشق صوفي . وهزّ غاليت كتفيه .

« هي ليست من نوعي » قلت موجهاً كلامي لغاليت « ليست من نوعي . . اعتدت أن أستمع الى حديثها . لكنها كانت بعيدة عني . . » .

ارتجفت يدا السيد « ماغنول » فاعتقدت أنه سيهاجني . بدأ وجهه يتقلص وخرجت من فمه حشرجات غريبة .

« لن يكون الأمر سهلاً معه » قال غاليت « لا أظننا نستطيع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحصول على شيء منه . سنذهب الليلة إلى بيته نفتشه . . » .

استدعى الابيضان الرقيب وهمسا شيئاً ما في أذنه . وتقدم شرطي فقيدني ودفعني أمامه . وسرنا الى البيت .

الرقيب هو رئيس الشرطة . واسمه « ماندیم مي تيت » هو أكثر الأسماء التي سمعتها مدعاة للضحك ، فهو يعني « لحم ـ ماء » .

ماندیم ، ضخم كفرس نهر . يُقبِل ، فتنسحب انسحاباً استراتيجاً الا اذا كنت ترغب في ظهور مفاجىء أمام مدقة باب سانت بيير(٤) .

أيام كنت في المقر ، كثيراً ما كنت أصبّح عليه بالخير وأفسح مجالاً لحديث قصير معه . فيستمع اليّ وذراعاه الضخمتان خلف ظهره . وتبدو عيناه الجاحظتان المتململتان بشكل غريب ، حريصتان على امساك كل كلمة تخرج من بين شفتيّ . وقد كان يضحك في بعض الأحيان ، وكم كان ذلك مرعباً . ضحكة كأنها صرخة فيل ، وتكشيرة ثابتة في وجهه تسيل أمعائي من الرعب .

لم يكن من أبناء بلدنا . جلبوه من مكان ما من « الغابون » . وقد أثار وصوله الى دانغان ضجة واثارة .

بعد أن دخلنا فك الرقيب قيودي .

« ها نحن نلتقي ثانية يا تاوندي ! » قال وهو يربت على كتفي « ستكون بخير هنا ولكن ، عندما تنتقل الى سجن مورو . . . » وأومأ بسلسلة من الايماءات الغامضة .

صك الشرطي الذي أحضرني عقبيه وذهب . وربت « ماندیم مي تيت » ثانية على كتفي .

« لم يفعلوا الكثير بك بعد » قال وهو يلقي نظرة عليّ « واذا كانوا قد أرسلوك ، بالرغم من ذلك ، اليّ فالهدف واضح . لننظر ما نستطيع

---

(٤) المقصود : الا اذا كنت تريد موتاً مفاجئاً ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فعله . يجب أن تبدو مدمّى . سنصبّ دم ثور على « جرزتك » وبنطلونك القصير . ألا تستطيع الصراخ ؟ » .

ورحنا نضحك .

« يظنون أنني لن أكون رحيماً لأنني لست من هذا البلد » . قال ماندیم .

أمضينا وقتنا في لعب الورق .

جاء غاليت وعاشق صوفي الى معسكر الشرطة في الحادية عشرة . رششت نفسي بدم ثور وتمددت أطلِق أنيناً .

أضاء غاليت مصباحه في عيني وقبض عليّ من شعري . ولا أعرف كيف استطعت البكاء الحقيقي . تدربت على بعض « النشغات » ولكنني ، حين وصلوا ، بكيت كما لم أبك في حياتي .

« جيّد » قال غاليت وقد أرخى رأسي « نستطيع الآن أن نفتش مكانه . أين صوفي ؟ » سأل وقد قبض على عنقي .

. . . . . .

« انه شخص عنيد » قال عاشق صوفي محرضاً .

« سنرى » قال غاليت وهو يركلني على كليتي .

أصعدوني الى مؤخرة « اللاندروفر » مع ماندیم . وجلس غاليت مع عاشق صوفي في المقدمة . وسرنا . .

أضواء « اللاندروفر » الأمامية تشق درباً ساطعة خلال سحب الظلام التي حلت على دانغان الغافية . وقد سطعت على آخر بيت من بيوت الحي الأوروبي . تسلقنا الهضبة التالية وبدأنا انحدار جانبها الآخر الى المنطقة الافريقية التي تمتد أسفل الهضبة في مكان كان فيما مضى مستنقعاً ، وسرعان ما ظهرت .

تجمعت الماعز ، التي استقطبها سطوع الضوء الباهر ، أمام شعاع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأضواء الأمامية لسيارتنا . وطوّح عاشق صوفي عجلة القيادة بعصبية ليتجنّب صدمها . ولكن ذلكِ أتعبه ، فهجم عليها مباشرة . وسار اللاندروفر يتزحلق في متاهة بين البيوت الطينية المتآكلة .

« هناك ، هناك أسكن ، في البيت الذي تقع عليه الأضواء الآن » قلت لهم .

وقفنا . اقترب مني غاليت وهمس في أذني « تصرف وكأنك عائد من عملك كالمعتاد . ولا تخادع والا . . » .

دفعني أمامه . . وطرقت الباب . ساد الصمت لحظة ثم جاءت تمتمة مألوفة اليّ .

« أنا تاوندي » صِحْت .

« أين كنت حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل » اتضحت التمتمة وهي تقترب .

« كنت في العمل » .

« ما هذا الضوء كله ؟ ألم تحضر الشمس في جيبك ، بالصدفة ، الى البيت ؟ » .

تلى ذلك صوت خشب يتزحزح وانفتح الباب . ورفع زوج أختي يده الى عينيه التي أغشاها الضوء . وعاد فرتّب ثيابه .

« كان يجب أن تخبرني أن . . لكن . . لكنك مع أوروبيين . . » .

ابتسم ابتسامة عريضة وانحنى لكل من غاليت وعاشق صوفي . توجّه ثانية الي ورفع يده الى فمه حين شاهد البقع الحمراء على كنزتي .

« ماذا حدث ، ماذا حدث يا أخي ؟ » صرخ في رعب .

« أنا جوزيف على كل حال . كان يجب أن تضع النار خارج البيت فهو مليء بالدخان » .

« ها هي » صرخ غاليت وهو يقبض على كتفي .

« انها أختي » قلت ضاحكاً « ليست سوى أختي » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« دعها تخرج الى الضوء » أمر غاليت .

« تعالي وأظهِري نفسك » قال زوجها .

جاءت شقيقتي ملفوفة بشرشف مشعث . ونظر غاليت الى المهندس الزراعي .

« ليست هي » قال المهندس بنفاذ صبر .

« جوزيف ، ماذا فعلتْ ؟ » سألتْ شقيقتي « لِمَ هؤلاء البيض هنا ؟ » .

وكان صوتها باكياً .

« ماذا فعلتَ ، يا الهي . . ماذا فعلتْ ؟ .

اقتربتْ ولمستْ « جرزتي » وحطم زعيقها هدوء الليل .

« ماذا حدث ؟ من مات ؟ » صاح أحدهم .

« جاء البيض لاعتقال جوزيف » قالت شقيقتي منتحبة « سيقتلوه . . ظهره كله مدمّى »

سادت الموقع حركة غريبة وكأنه استيقظ كله . ونمتْ حولنا دائرة كبيرة من الافارقة الملتفين بالبطانيات والأردية ، وهم يتقدمون . وكانت النساء الشيء الذي لا يمكن احتماله . تجمّعن حول شقيقتي ينتحبن بصوت حاد ويحلشن شعر رؤوسهن . وشقيقتي تصيح طوال الوقت بأن البيض سيقتلون أخاها . . أخاها الوحيد في هذا العالم .

بدا عليَّ الارتباك . فعادةُ ندب حظوظ الآخرين التي لا تجدي شيئاً ، تزعجني .

صاح غاليت آمراً بالسكون . وسار بين الحشد ملوّحاً بسوطه فأحْدَثَ فجوة حولي وقال شيئاً ما ، بهدوء ، لعاشق صوفي ، وأشار للشرطي أن يقبض على كتفي ليمنعني من دخول البيت مع الأوروبيين .

« ليبق الكل خارجاً » صاح غاليت سنفتش .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« ستنكسر كل أباريق الماء » قالت شقيقتي بصوت متألم « كلّ الأباريق الفخارية المسكينة . . »

حاولتْ أن تلحق بالأوروبيين لكن الشرطي دفعها الى الوراء .

« لا تدعه يأكل موزاتي » ألحّت عليه « لا تدع غاليت يأكل موزاتي » .

سرى الضحك في الحشد ، ورفع الشرطي يده الضخمةالى فمه ليخفي ضحكته .

انشغل الأوروبيون بالبيت . قذفوا كل ما يمكن تحريكه الى الفناء . وكأن عاصفة تثور داخل البيت . أخرجوا فرشة هي شوال قديم محشو بورق الموز الجاف . واستل غاليت سكينه . . شق الشوال وراح يفتش الحشوة ورقة ورقة ، يساعده الشرطي وعاشق صوفي . ولكنهم سرعان ما توقفوا . وكان عاشق صوفي هو أول من رفع ظهره ومسح أصابعه بمنديله .

استدعى غاليت زوج أختي وسأله : « هل تفهم الفرنسية ؟ » .

هزّ رأسه بالنفي . فأدار غاليت رأسه نحو الشرطي الذي صك كعبيه واتخذ موقعاً بين الرجل الأبيض وزوج أختي .

« أسأله ان كان يعرف صوفي » قال غاليت للشرطي .

واستدار الشرطي الى زوج اختي .

« يسأل الرجل الأبيض اذا كانت المرأة التي نبحث عنها هي صديقة « تاوندي » سأل الشرطي بلغتنا .

رفع زوج اختي يده . ثنى سبابته ومدّ ابهامه فوقها وأبقى أصابعه الثلاثة الأخرى ممدودة . وهذا يعني بأنه يقسم أمام الثالوث المقدس على قول الصدق . رطب شفتيه بلسانه . وقال بصوت عميق أجش أنه لم يحدث أن كان بين صوفي وبيني شيئاً . واذا كان كاذباً فليسخطه الله الآن هنا .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« ليذبحني الله » صاح زوج اختي . وترجم الشرطي بأنه مسيحي صالح .

نظر الأوروبيان اليه باندهاش كبير ولكنه استمر دون أن يُبدي اضطراباً :

« انه مسيحي صالح لا يحلف باستخفاف . وقد حلف أنه يقول الصدق ، ولا يعرف شيئاً » .

« وزوجته ؟ » سأل غاليت مشيراً الى شقيقتي .

رفعتْ يدها ، تماماً كما فعل زوجها . ولكن عاشق صوفي أوقفها قبل أن تمضي في الكلام .

« حسناً ، كفانا من هذا ! » صرخ عاشق صوفي « لا أحد هنايعرف صوفي . ولا حتى أنت ـ ها ؟ » قال وهو ينظر اليّ .

« قُل لهم أن من يدل على مكان صوفي سينال مكافأة » ، قال غاليت للشرطي بعد أن خرجنا من البيت .

صفق الشرطي يديه ، وتكلم في الحشد الذي بدأ الظلام يبتلعه .

« اذا أردتم الحصول على مال وفير » قال الشرطي « أخبروا عن مكان صوفي . . ويمكنكم أيضاً أن تحصلوا على ميدالية إن فعلتم . . » .

« ماذا يظننا غير المختونين هؤلاء » صاح أحدهم .

« حسناً »قال غاليت ملتفتاً اليّ « سنضعك في مكان أمين ونكمل تحقيقنا ، هيا بنا » .

دفعني « ماندیم » تجاه اللاندروفر بفظاظة ليظهر اخلاصه ، فصدرت عن الحشد همهمة سخط .

جلس غاليت الى جانب عاشق صوفي الذي كان يدق عجلة القيادة بقبضته ويتمتم « العاهرة . . العاهرة . . » رجع بالسيارة الى الوراء قليلاً ثم أدار عجلة القيادة بسرعة وغضب ، فتبعثر الحشد في خوف .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« إجلده خمسة وعشرين جلدة » قال غاليت للشرطي حين عدنا الى معسكر الشرطة .

تمددتُ على بطني أمام الشرطي . وسلمه غاليت السوط المصنوع من جلد فرس النهر الذي يحمله دائماً . وهسّ السوط على قفاي خمسة وعشرين مرة .

كنت منذ البداية قد قررت أن لا أصرخ . صررتُ على أسناني ودفعت نفسي الى التفكير بشيء آخر . مرت بمخيلتي صورة كاليسيا ، وتبعتها صورة « السيدة » ثم صورة والدي . . ومرت أحداث اليوم كلها أمام ناظريَ .

كان مناديم ، خلفي ، قد بدأ يلهث .

« أصرخ بحق الله « زعق بلغتنا » أصرخ . فلن يسمحوا بالتوقف عن جلدك ما دمت لا تصرخ » .

عدّ ماناديم خمسة وعشرين واستدار بعدها الى البيض .

« أعطني السوط » قال غاليت .

ساط غاليت ظهر الشرطي بعنف فزمجر هذا بألم .

« أتَرَى ، هكذا أريده أن يُجلد . ابدأ من جديد ! » .

رفع ماناديم أكمام سترته الكاكية والتوت شفتيه من الألم .

« أصرخ . . اصرخ » رجاني وهو يعاود الجلد « هل أُغلقت أذناك بالخرا ؟ » .

صاح عاشق صوفي يأمره بالصمت ، ثم رفسني تحت ذقني وأمر « كفى . كفى » .

توقف ماناديم .

«لا طعام له غداً ، هل فهمت ؟ » قال غاليت وهو يقلبني بحذائه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« أحضره الى مكتبي بعد الظهر . وطوال اليوم . . السوط . . هل فهمت ؟ » .

« نعم سيدي » أجاب ماندِيم .

وذهب الأبيضان .

لم أتوقع قضاء الليل في بيت « ماندِيم مي تيت » . ها هو أمامي وقد أثقل النعاس رأسه . فمه مفتوح وهو مُرتَمٍ ، كمعطف قديم ، على كنبة بالية .

« أعتقد أنني قد فعلت اليوم ما لن أتمكن من نسيانه أو التكفير عنه . . » قال ماندِيم بعد أن رحل الأبيضان .

غامت عيناه الواسعتان بالدمع .

« يا لك من مسكين يا تاوندي . . ويا لنا جميعاً . . » تأوه ماندِيم .

ليلة أخرى في معسكر الشرطة

كنا حوالي العشرين ، من سيئي الحظ ، نشكل معاً « فرقة الماء » ننقله الى كافة بيوت البيض في دانغان .

تقع البئر أسفل التل على مسافة كيلومتر من المنحدرات التي يربض الحي الأوروبي فوقها .

كانت تنكتي مثقوبة . وقد بذلت جهدي لأوقف سيلان الماء منها ، فأغلقت الثقب بطبقة من الطين . لكن الماء ظل يرشح على كتفي . وأما الأسوأ ، فهو أن تتسلق التلة بتنكة ماء على الرأس ووراءك شرطي يهدد بسوطه . نهبط التل ركضاً الى البئر ثم نعود الى الصعود الصعب من جديد . . عند الظهيرة أحسست بأن رأسي سيتصدع . ولكنني كنت محظوظاً بشعري المحلّق الكثيف الذي تستطيع التنكة أن ترتاح عليه كما على وسادة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد سرّني الاعتقاد بأن القومندان أو السيد مورو أو عاشق صوفي . . أو أي أوروبي في دانغان ما كان سيصمد في هذا العمل كما صمدنا .

عند منتصف النهار زارتني كاليسيا .

انتقال من البكاء الى الضحك ثم البكاء . علبة سجائر .

أخبار من « المقر » .

لم يعد أحد يذكرني . حب كامل بين القومندان وزوجته ـ أو هكذا يتظاهران .

الساعة الواحدة ، زيارة من باكلو .

ارتجفت شفتاه . قليلاً من المال .

أخبار من « المقر » .

لقد انتسَيْتُ تماماً . « السيدة » تحب زوجها لكنها تنظر أحياناً عبر النافذة لترى السيارات العابرة .

هل تأمل بعودة السيد مورو ؟ لا بد أن يمر بالمقر فلا طريق أخرى الى بيته .

زيارة من شقيقتي .

بكاء وبكاء . تظن ، حين تراها ، أنها فقدت زوجها . لم تغتسل منذ يوم اعتقالي .

على وجهها خطوط من الدمع والمخاط . يا لها من طريقة للتعبير عن الحزن بأن تجعل من نفسك شيئاً مقززاً ! لكنها التقاليد ، فما دمتُ هنا ستظل تبكي حتى تدفع بزوجها الى الجنون . الرجل المسكين يخاف أن يطلب منها إعداد طعامه .

أعطتني قليلاً من النقود تكفي بالكاد ليد « ماناديم » الكبيرة ، فهو ملاكي الحارس . طلبتْ مني أن أضبط نفسي وكأنَّ ذلك يساعد في عدم اثارة البيض .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يا لأختي المسكينة . انها الآن الأم الصغيرة ، بنصائحها وتقطيبة الاهتمام على جبينها وبعينيها المغرورقتين بالدمع . كم حزّ ذلك في نفسي .

زيارة من زوج أختي .

عندنا طريقتنا الخاصة في الحديث . نسأل أسئلة ، وأسئلة أخرى تكون هي الاجابة . كانت لحظة لقائنا ، تحت نظرة الحارس ، مشحونة بالعواطف . وكسر زوج أختي الصمت بأن قال « ما نتيجة كل ذلك ؟ أي نوع من البشر نحن ؟ . . » ولوّح بذراعه .

لم يكن لدي ما أقوله سوى أن أسأل نفسي نفس السؤال في اللحظة التي كان سيغادر فيها .

زيارة من « أوبيبي » الملقّن .

رجل عجوز صغير مضجر . بذلت أقصى جهدي لأضبط نفسي خلال زيارته . تحدّث طوال وقت الزيارة عن آلام سيدنا المسيح . ربما يظنني مسيحاً جديداً . أوصى بالعفو وتحدث عن مكافآت وبركات السيد المسيح وحدثني عن السماء وكأن بلوغي اياها هو قضية أيام . « أوبيبي » لا يزال يعاني من السيلان الذي أصابه قبل الحرب . ولم تمنعه اهتماماته الروحية من مشاركتنا وجبتنا الصغيرة من الطعام . ووعد بأن يزورنا غداً .

سيتخلص منه « ماناديم » من أجلي .

*

« مجموعة الماء » .

ماء وعرق . سياط ودماء .

تسلق المنحدر ، قتل . ارهاق .

بكيـــت .

*

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقيأت دماً . جسدي يخذلني . ألم حاد في صدري كأن كلاّباً يمسك برئتي . أخذني ماندیم هذا الصباح الى غاليت . لم يستمع غاليت في البداية .

« لن تستطيع أن تمرر ذلك بسهولة عليَّ » قال ماندیم وقد تصلبت عنقه « ليس بسهولة هكذا » .

نهض غاليت عن مكتبه وتقدم اليّ . أدار رأسي في اتجاهات عدة وتحسس جبيني بيده الرطبة . مطّ وجهه وقاس نبضي .

« حسناً » قال وهو يعود الى مكتبه .

أخرج دفتراً وسألني عن اسمي . وعندما انتهى من الكتابة سلمه لماندیم الذي صكَّ عقبيه .

« خذه الى الطبيب » قال غاليت « من الأفضل أن نتأكد من ذلك . . وأما أنت » قال وهو يحدق في عيني « لا تتوهم أن ذلك سيمنعني من التحقيق معك بعد ظهر هذا اليوم » .

خرجنـا .

عرفت من المستشفى ، فيما مضى ، جدرانه الكالحة التي كانت صفراء في وقت ما . كنت ألمحها من فوق سياج « الهيبسكاس » حين أذهب الى السوق . هنالك مكانان يسببان الخوف للمحليين في دانغان . أحدهما السجن والآخر هو المستشفى الذي يسمونه « مقبرة الرجال السود » .

وأخيراً وصلنا .

يقع مستشفى دانغان بين المركزين التجاري والاداري . وهو دزينة من بنايات صغيرة مميزة تصطف حول مرجة خضراء . وفي مركز هذه المرجة توجد غرفة العمليات بلونيها الأحمر والأصفر .

رآنا واحد من الممرضين الافارقة فتوجه الى ماندیم بذراعين ممدودتين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبابتسامة عريضة. وتحققت، بسبب مرحه، انه يعاني من الخوف. كان خائفاً من ماندیم ككل الذين مررنا بهم رافعين قبعاتهم بارتعاش. تبرع بتقديم سيجارة لماندیم ، واضطرب حين وجده لا يدخن . تحسس جيوبه واستخرج بندقة « كولا » كسرها الى نصفين ، أعطى واحداً لماندیم وقذف الآخر في فمه .

مطّ الممرض بعد ذلك وجهه وسأل « ما أمر هذا الزبون ، هل هومتمارض ؟ » .

تقلصت رقبة ماندیم وتوقف عن المضغ وبصق بين قدمي الممرض .

« انني آسف » قال الممرض « نصادف ، دائماً ، متمارضين بين سجنائك » .

بصق ماندیم ثانية قرب حذائه وتنحى الممرض جانباً .

« انني آسف جداً » قال بصوت متلعثم وقد ابتعدنا عنه .

« كلهم هكذا » قال ماندیم « كلهم متشابهون . . يعلم انني سألقاه ثانية ، ان عاجلاً أو آجلاً . . لذلك يتصرف هكذا . . » .

توجهنا الى المستوصف . المرضى ينتظرون في صفين خارج باب كتب عليه « مراجعات الأطباء » . الصف كان أطول من أن تستوعبه الشرفة ، وكان على الشرطي المناوب أن يبقيه في هذا المكان الضيق . أمراض الدنيا كلها ، مع العرق والانقباض ، تزاحمت ، وهي تروح وتجيء عبر الباب في انفتاحه وانغلاقه . حالات مخيفة من « المصنع »[٥] ، جلود تغلفها البثرات كأنها سوق « الكسافا » . حالات من الجذام بجلود متصدعة مقرحة . ومصابون بمرض النوم بنظراتهم السارحة . نساء حوامل ، عجائز وأطفال ينشجون . .

وقف الشرطي بانتباه حين أبصر « ماندیم » ، فأعطاه الأمر

---

(٥) المصع : من الأمراض الزهرية شبيه بالسفلس ـ المترجم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

« استرح » . شق الشرطي الطريق لكلينا بهراوته ثم دق باب العيادة . شق الباب شرطي آخر كان خلفه . وخرج عندما رأى ماندیم وقادنا باحترام الى الداخل .

« لا أحد هنا حتى الآن » قال الشرطي « الساعة لا تزال العاشرة ، والطبيب الافريقي يُجري عملية جراحية . ستبدأ الاستشارات بمجرد انتهائه . أما الطبيب الأبيض فهو لا يأتي أبداً ، لقد ترقّى منذ أمد قصير الى رتبة كابتن . . » .

جلستُ على المقعد الخشبي الطويل . أحسست بعطش شديد وألم كأن ابرة تنفذ من جانب رئتي الى الجانب الآخر . أعجزني عن التنفس المنتظم ثقل شديد ضغط على ضلوعي . وماندیم يجلس في مواجهتي يقلب صفحات دفتر الفحص الطبي ويومىء برأسه .

« لماذا لم تخبرني بأنك ضُربت بعقب بندقية على صدرك أمس ؟ » سألني ماندیم فجأة .

« ضربة من « جافارو » بعقب بندقية هي شيء لا تستطيع تجاهله » تابع ماندیم كلامه « لا بد من القول أن هذا يحيّرني ـ فأبناء بلدكم ، الشماليون ، هم حقيقة متوحشون . . » .

سمعنا ضجيجاً خلف الباب ، ودخل الطبيب الافريقي . سلم بالأيدي علينا . علق قبعته وجلس الى مقعده .

كان الطبيب على أبواب الأربعين ولكن نحافته جعلته يبدو أصغر سناً . والاشارات على حاجبيه توحي بأنه قد وشم بعد الحرب الأولى بسنوات قليلة .

سألني أن أنزع ثيابي . ونقّل سماعته الطبية على ظهري . ركنها ، بعد ذلك ، على صدري وطلب مني أن أشهق الهواء . قطّب حاجبيه ، وللحظة ، ظهر الرعب على وجهه ، عاد ، بعدها ، الى هدوئه . أبعد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السماعة عن أذنيه وأشعل سيجارة . ونهض عن الكرسي وعاد الى مكتبه .

« عقب بندقية أخرى . . » ابتدأ الكلام « يجب أن نجري تصويرا باشعة إكس . والمشكلة أنني لا أملك مفاتيح غرفة الأشعة . والطبيب المسؤول غائب . . » .

نهض وسحق عقب سيجارته بعصبية في المنفضة .

« هو ليس هنا . . ولم يكن ، يوما ، هنا . . » قال كأنما لنفسه .

تقدم اليّ ووضع يده على كتفي .

« سأحولك الى المستشفى . . لا تخف ، كل شيء سيكون على ما يرام . سأقدم تقريراً لرئيس الشرطة » .

كتب طوال دقائق عشر ، وناول الرسالة لماندیم . صك هذا عقبيه وذهب . واستدعى الطبيب ممرضاً .

اندفع ممرض آخر الى المكتب وهو يتأبط زجاجة ، وقال « ليس هناك » .

وضع الزجاجة على الطاولة « مزيداً من الأركو » قال الممرض « مزيداً من الأركو » .

نزع قبعته ومسح جبينه . كان رجلاً ضخماً يشبه ضفدعاً بوجه مسطح . وقد فك أزرار معطفه وأوفروله « ليفسح مكاناً لبطنه . وغاصت سلسلة ذهبية في احدى الثنيات الضخمة لرقبته كرقبة عجل ، وعادت تظهر عند « تفاحة » رقبته ليتدلى منها « مسيح » معدني صغير يتألم ويغرق في عرق الرجل الأسود الغليظ » .

نظر الطبيب اليه بلا اهتمام وأشار الى الباب . تلكأ الممرض قليلاً ، ثم التقط الزجاجة وسار ، متردداً ، باتجاه الباب .

« طيب ، طيب » قال وهو يضحك « طيب ، أيها الرئيس » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اختفى ، واختفت معه لذعة الكحول والأثير التي كانت قد ملأت جو المكتب .

telegram:@mbooks90

ارتعشتُ من البرد واصطكتْ أسناني رغم حرارة الشمس . واجتاحني خدر تعب شديد . أحسستُ ، بعد ذلك ، بأنني خفيف وبأن ألف زوج من المنافيخ تسرِّعُ تنفسي . تعطل تفكيري ، وارتفع لباس الطبيب الأبيض فغطاني . . ثم غطا كل الغرفة . ورحت أعوم بعيداً فوق قبر الأب غيلبرت على دراجته النارية ، وفوق « مطرقة البيض » ، وارتقيت قمة شجرة القطن . . عالياً بين الأغصان . وصار العالم كله يتمدد بين قدمي ، وبحر واسع من المجذومين و « الممصوعين » ، ومن حوامل شقت بطونهن وعجائز نحاف وملايين « غاليت » ، يقفون على كثبان نمل يحفظون النظام بفرقعات سياطهم المصنوعة من جلد فرس النهر . . قفزت عن غصني وغطست ألف ميل باتجاه ذلك العالم . انفجر رأسي كقنبلة ، فأنا الآن مجرد سحابة . . سحابة من ذُباب النار . . غبار ساطع من ذباب النار سفته الرياح . . وسواد ، ما بعد ذلك ، سواد . .

عدت الى وعيي فوجدت نفسي ممداً على سرير خشبي ، وحيداً ، في مهجع صغير . . القواطع تكاد تلامس الأرض . ولا أستطيع ، من سريري ، أن أرى سوى الأقدام . تحرك مقبض الباب فأغلقت عينيّ . .

« لم يستيقظ بعد . » قال صوت عرفت فيه صوت الطبيب الافريقي .

أمسك برسغي ووضع يده على جبيني . غادر الطبيب ، بعد ذلك ، وتحرك مقبض الباب ثانية .

سمعت على الأرض صوت أقدام عارية لافريقي عادي مثلي . نظرتُ ، فرأيت وجهاً مرتعباً تحت « عمامة » حمراء ، يقف صاحبه في وضع انتباه . واحدٌ من « السارا » . . أشرت له بأنني عطشان فهددني « بسنكته » ، فلزمت الهدوء ، وأحسست بألم حاد في رأسي .

عاد الطبيب الافريقي الساعة السادسة . جاء ، هذه المرة ، الطبيب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأبيض وغاليت معه . جرّا البطانيات بينما الطبيب الافريقي يشرح لهم . قال أن أحد أضلعي مكسور ، حتماً ، وقد اخترق شعيبات الرئة .

« سنرى ما نفعل غداً » قال الطبيب الأبيض « خلال ذلك . ماذا عن حرارته ؟ . . »

نظر الى الرسم البياني لحرارتي .

« . . مئة وثلاث فقط ـ لا يشكل ذلك خطراً عليهم . من يفلت من يدك » قال يطمئن غاليت .

بلّعوني بعض الأقراص . وأعاد الطبيب الافريقي تغطيتي بالبطانيات . ورحلوا . .

جاء الأوروبيون وحدهم عند منتصف الليل فتظاهرت بالنوم . أعاد الطبيب الأبيض أمام الآخرين ما قاله الطبيب الافريقي . وفتحت عيني ما يكفي لأرى . كان هناك السيد مورو يتأرجح على قدميه سروراً ! .

« يجب أن ينال عقابه » قال السيد مورو « اعتنوا به ثم أرسلوه الي ، فهو عنصر خطير . سأجعله يتكلم . . سأبدأ به غداً » .

غادر الأوروبيون .

جاء ممرض ليراني خلال جولته . كان يلبس رداءه الأبيض على ملابسه الداخلية . نظر اليّ باشفاق وأمسك يدي .

« كلا » قال « لا أظنك فعلت ما يقولون . فأنا أعرف أنك لا تقدر على ذلك ولا بد أن وراء هذا شيء خطير . انني أتساءل لم أنت « مريض » مهم هكذا . . حين يقرر البيض أن ينالوا أحداً فهم دائماً يفعلون ذلك . . لم لا تهرب ؟ . لن يصدقك أحد ما دمت وحدك تقول الحقيقة لن ينقذك سوى غينيا الاسبانية . . أو مقبرة السجن . . »

يجب أن اهرب . أ . حل الى غينيا الاسبانية . السيد « مورو » لن ينال مني . ها هو الشرطي يشخر . . وساعة المستشفى تعلن الثالثة صباحاً .

لا بد أن أغتنم فرصتي . لكنها فرصة ضئيلـة . . . .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصبي الخادم

* فرديناند أيونو ، من مواليد ١٩٢٩ في الكاميرون . درس في الكاميرون ثم في باريس حيث بدأ في كتابة الرواية ، كما عمل في المسرح والتلفزيون ، ثم في سفارة الكاميرون في باريس وروما . عين ممثلاً لبلاده في الأمم المتحدة ، وهو يعمل الآن في بروكسل .

نشر الى جانب رواية « **الصبي الخادم** » ، رواية « **الكهل والميدالية** » ، و « **طريق أوروبا** » ، كما أعد رواية « **الصبي الخادم** » للمسرح .

* هذه الرواية مكتوبة بأسلوب يوميات الصبي ـ الخادم ، **تاوندي** ، الذي التحق بالبعثة التبشيرية في الكاميرون ، ثم انتقل للعمل في منزل القائد العسكري المحلي . وهو يروي مشاهداته التفصيلية ، التي تكشف وبعمق عن علاقة السيد بالعبد ، التي حاول المستعمر فرضها ، والتي تنتهي بتاوندي إلى الموت ، لأنه صار يعرف أكثر مما يجب .

رواية تسجل لبدايات الوعي الافريقي ، وتقدم شهادة نادرة عن الصراع الكبير الذي شهدته افريقيا في بحثها عن ذاتها .

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص. ب : ٥٠٥٧-١٣ (شوران) بيروت - لبنان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner